محمد شكري

زمن الأخطاء

سيرة ذاتية روائية

زمن الأخطاء - محمد شكري
الطبعة الثانية
الايداع القانوني: 31-1992

الغلاف: أحمد جاريد
مطبعة النجاح الجديدة

محمد شكري

زمن الأخطاء

سيرة ذاتية - روائية

أخطاؤك التي تحبها

محمد برادة

عزيزنا شكري

كيف أشكرك على هذه الهدية التي كنتُ أنتظر وصولهَا وأنت تتلكّأ في إرسالها : زمن الأخطاء؟ منذ بداية الثمانينات وأنا أنتظر، بعد أن نشرتَ منها بعض فصول ثم انصرفت عن الكتابة لتلاحق الحياة وأوهامها، لاهثاً وراء اللحظات المضيئة وسط رنّات الكؤوس وقهقهات السكارى، محتضناً في آخر الليل رماد الكلمات والبسمات واعترافات المحبَطين. كنت أعرف أن صفحات «زمن الأخطاء» ستتنامى خلسةً داخل «أناك» الآخر، المتستّر، الذي لا ينتعش إلاّ بالكتابة، ولا ينتظر سوى عودة الطائر الهارب من مواجهة الورقة البيضاء ليطل برأسه ويقنعك بأن الكتابة هي خلاصك الذي تُسرف في الإعراض عنه.

لكن، هل حقاً أنك لم تكتب طوال السبعينات والثمانينات؟

طرحت على نفسي هذا السؤال وأنا أعيد قراءة بعض رسائلك إليّ خلال تلك الفترة: صفحات كثيرة تنبض بمشاعر القلق والوحـــدة و «عشق ما لايمكن أن يكون»؛ وكنت تكتبها تحت ضغط داخلي لاتستطيع له دفعاً. أحياناً في آخر الليل وأحياناً داخل مقهًى، في أسلوب تلقائي ولغة متدفقة (تبتكر بعض كلماتها) وتفسح فيها المجال لتذكراتك وقراءاتك ومشاهداتك. وفي ثنايا كل ذلك تلمع حكَمٌ «شكرية» تمتزج فيها المرارة بالسخرية والاعتزاز بالذات، مثل قَولك في إحدى الرسائل «كلّ السكارى تنكَّروا لي إلاّ الذين مازالوا ثمالى بخمرتي» (12-1-1982). من خلال تلك الرسائل، إذن، تأكدتُ بأن علاقتك بالكتابة لم تنقطع لأنك كنت تعيشها كَحالة دائمة، كامنة ومؤرّقة وكنت تتحايل عليها بكتابة رسائل إلى بعضَ أصدقائك.. وأحيانا تُبرر عدم استجابتك للأنا العميق قائلا:

«يخيل إليّ أني عشتُ دهراً. في الحقيقة أنا لم أبْدأ بعد عزلة الكتّاب الحقيقيين. إذا بدأتُها فربّما لـــن أخـــرج منــها. أتمنى ذلـك» (11-5-1980). الى أين تهرب من الكتابة وأنت لم تجد سواها يوم ضاقت بك الدنيا وحاصرك البلداء فلجأت إلى مستشفى الأمراض العقلية (مايوركا، تطوان) في بداية دسمبر 1977؟ كانت تصلني منك كل يوم، تقريباً، رسالة تُنفِّس بها عن غيظك وغضبك، إلاّ أنك، في الآن نفسه، تلتقط مشاهد رائعة ومسلية من حياة «المجانين» والمنهارين عصبياً والباحثين عن تواصل داخل المستشفى بعد أن حُرموا منه وسط الأحياء - العقلاء. وفي إحدى تلك الــــرسائل أقرأ: «الإحساس بالكتابة بدأ يغزوني في هذا المارستان. عندما أخرج من هنا سأحاول أن أغيّر حياتي» (18-12-1977). ليس مطـــــلوباً منك أن تُغير حياتك وإنما أن «تكتب حياتَك». تكتُبها، مثلما فعلت في «الخبز الحافـي»، فتغـــيّرها وتغير حيـــــوات الآخرين، لــــــيس نحو «الأفضل» (مَنْ يزعم القــــــدرة

على ذلك؟)، وإنما من خلال تلك اللعبة الجميلة، الفاتنة، عندما نجري وراء عُمُر كان اسمُه حياتَنا، نجهد في الإمساك به فَيُمعن في الإفلات، ونُسائله فَيُلاحف الصمتَ، ولا يتبقّى لنا - يالنعمة الكتابة! - إلاّ أن نُحورّ ونضَيف، ممارسين حريةً تكشف عن المحلوم به والمكتوب والمؤمَّل. لا أحد، خاصة من بين الذين يكتبون، يعيش حياة واحدة. قد يكون موتُنا واحداً لأنه يُبيد المخيلة والكلمات والشهوة، ولكن الحياة نهر كاسح، متجدّد، مُتلوّن، يغرينا بالتعدُّد والبهاء ويُرغمنا على التغيُّر والنسيان.

لكنك أيضاً، فضلاً عن حفاظك على علاقتك «السرية» بالكتابة عبر رسائلك، فإنك «تحكي حياتك» باستمرار لأنها جزء لاينفصل عن إدراكك للعالم وللآخرين، ولأنك لاتميل إلى التجرُّد مما عشت لتحلق في أجواء التحليلات... والذين يعرفونك يدركون تلك الطاقة لديك على «حكي حياتك» وإدماجها في الحاضر، حاملاً في كل مرة، تفاصيل جديدة أو وقائع لم يسبق لك أن كتبتَها أو حكيتها... هذا ما يجعلني مرة أتساءل مع نفسي: هل شكري يراجع، قبل أن ينام كل يوم، وقائع حياته ومشاهداته لتُسعفه عندما يستحضرها؟ أم أن قوة ذاكرته وتنوع تجاربه هما اللذان يُسهِّلان عليه تأثيث فضاءات الأسمار ومُساراَّت الأصدقاء؟

هكذا، تحكي حياتك قبل أن تكتبها، وعندما تكتبها تأتي مغايرةً لما حكيتَه شفوياً. وما تحكيه لايُطابق «أصلاً» لأن الكلمات والإشارات وسياق الكلام تخلط المعيش بالمتخيَّل فلانكاد نميِّز ما وقع ذات يوم عمّا يمكن أن يحدث الآن أوْ غداً بطنجة أو تطوان أو العرائش وأين تقع «حياتك» من كل ذلك؟ داخل الحكي الشفوي أم داخل الصفحات المكتوبة؟ بَلْ لعلّها خارج الدائرتيْن معاً، لأنك لم تُعطنا سوى طرس مُهيَّأ لاستقبال المزيد من الحكي والكتابة.

بعد قراءتَي الاولى ل «زمن الأخطاء»، لفتَ نظري ابتعادُك من

الصوغ الروائي لسيرتك، مثلما فعلت في الخبز الحافي، ولجوؤك إلى كتابة شذرية تحمل عناوين فرعية وتُشكّل مجموعة من النوافذ والكَوى نُطلّ عبرها على مشاهد، وأحداث، فضاءات، وحيوات تلتقطها عينا شخص يجهد في أن يُلغي المسافة الزمنية الفاصلة بينه وبين ما عاشه ذات يوم. ولبلوغ ذلك، حرصتَ على أن تَتجنَّب استعمال فعل «كان» ماأمكن، لتُوهمنا بأن ما تحكيه حاضر باستمرار أو هو مستقبل محتمل. كأنك تحوّل الماضي إلى حاضر لتعيش داخله، مُناغياً الشخوص، مُلامساً الأمكنة، مشيِّداً من تلك المشاهد جزيرة تلجأ إليها عندما تضيق بواقعك اليوميّ المكرور. حتّى عندما تلتصق بما «حدث» وتنقله في اقتصاد مقتر، فإن ما ترويه ينفلت بعيداً عنك لينتصب مستقلاً، مستفزاً لمخيلّتنا وتواطئنا:

«... تقيأ تلميذ بقايا زيتون فقال واحد منهم:

- إنه يأكل الزيتون مع أبيه السكير يا أستاذ.

باس تلميذ تلميذةً فكانت مشكلة. ولكي أردّ لها الاعتبار أمرتُها أن تَبوسه هي أيضاً فكفَّتْ عن البكاء...» ذلك أن تجربَتك معلّماً داخل الفصل لايمكن أن تشخصها تلك الكلمات فقط بل تنضاف مخيلتنا إلى السارد لتستحضر مشاهد مُتعدية ل«الواقع».

على أن ما أعجبني وأمتعني في «زمن الأخطاء» هي تلك الصفحات التي ترسم فيها بعض علائقك مع النساء، وكذلك «البّرُوفيلات» التي خططتها لشخصيات أجنبية هامشية عاشت في طنجة: روساريو، سارة، باترسيا، لوشوڤاليي.

في علاقاتك النسائية، شيء ما، قَدَرٌ قَاس، يدفعك دوماً إلى أسفل ويحول بينك وبين أن تعيش تجربةَ حبٌ مكّتملة بملء عواطفك وجَسَدانيتك، فتظل مُنشطراً: المتعة الآنية والجسد للعاهرات، أما الحبّ فهَو دائما عندك في دائرة « ما لايمكن أن يكون» تُجهضه نرجسيةٌ مفرطة أوخوف من العذاب أو مثالية رومانسية:

«... لم أسمح حتى الآن لأي عاطفة أن تخونني. لقد عشتُ دائماً في حالة طوارئ. ماأحببتُ إلاّ ماكان هارباً؛ فالحب، مثلاً، لايسحرني إلاّ إذا كان أسطورياً: أتحدث عنه دون أن ألمسه أو أعانقه...». هكذا لن أفهم ابداً لماذا تعطّلت قصةُ حب مُمكنة وفاتنة بين شكري «ولد السوق» الذي أصبح متعلماً وبين فطيمة (أمّ سلوى) سيّدة البارْ التي استدعته للعشاء في بيتها وقدمتْ له طفلتها ليراجع معها دروسها... ومن قبل فطيمة، كنزة المومس التي أشعلت الفتيل في قلبك ثم رفضت الاستجابة لحبك... لكنك، خلافاً لصديقك الأعمى المختار الذي كان يتحصن بتقاليد الحب العذري، كنتَ تدفن حبوطَ العواطف في المتع «الملموسة» والمغامرات العابرة، قبل أن تتنبَّه إلى أن العالم الذي كوّنتَه في مدينة العرائش، خارج المعهد، قد تَزلزل. ليس لك من مأوى (مثواك الأخير؟) سوى فضاء طنجة الذي تلبَّسك فَسكَنْتَهُ، وأغراك فأعدتَ صُنْعه :

«... لو كنتُ في طنجة لما أحسستُ بهذا الفراغ المملّ. هناك أستطيع أن أولّد من أكثر الأيام كآبةً وعوزاً بعضَ المتع. العزلة هناك حرة لها مذاق التوت البري، هنا [العرائش] مفروضة لها مذاق الحنظل». هل أجازف فأقول بأنك عوّضتَ حب المرأة بحبّ طنجة أيها المتوحِّش الذي يخاف عتَمة الدفء وينتشي بِشُسوع البحر ولانهائية المدى؟

أحببَتُ أيضاً، كما أشرت، الصفحات التي رسمت فيها بروفيلاتِ لشخوص قابلتَها أو عاشرتها فترة من الزمن. وأظن أن ملامح لوشوفاليي لن تتلاشَى بسرعة من مخيلة القارئ.

تتحدث عنه وفي الآن نفسه تتحدث عن نفسك لأنك تجعله مرآة مُحتملة لشيخوخة بئيسة يموت خلالها الكاتب، المبدع، الحالم، بالتقسيط. قال لك لوشوفاليي ذات مرة: «في بلاد المواعيد يموت الإنسان جوعاً»، وكانت تلك العبارة كافية لإبراز هشاشة الشباب

والمتع ومالذَّ وطاب: «... ولكي أقوي وأعزي نفسي صرتُ أقول: لن أشيخ سيئاً، عندما نشيخ نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد (...) صرتُ أخشى نهاية حياتي من خلال حياته...»

وأعتقد كذلك أن الصفحات التي عنونتَها ب «المنسيون» وحكيتَ فيها مشاهد من إقامتك بمستشفى الأمراض العقلية بتطوان، وهي أيضاً من الصفحات التي لايمكن أن تُنسى... ومثلها أيضاً الفقرات التي تسخر فيها من نفسك بعد أن اجتزتَ عتبةَ النشر وأصبحت كاتباً تنشر لك الصحف الوطنية!

عزيزنا شكري

قبل أن أختم هذه الرسالة أشير إلى أن العنوان الذي اخترتَه للجزء الثاني من سيرتك العاطرة لايخلو من التباس محيّر: أخطاء بالنّسبة لمن؟ للآخرين أم بالنسبة لك؟ إذا كنت تقصد أخطاء الآخرين في حقّك فإننا سندخل في متاهة قبل أن تُحدد معنى الخطأ وعلى مَنْ تقع المسؤولية في ارتكابه. أمّا إذا كنت تقصد أخطاءك أنتَ، فلا أظن أن الأمر سيكون أسهل مادمتَ ترتكب الأخطاء التي تُغيظ الآخرين وتجعلك تحس أنك أقرب إلى ذاتك وتلقائيتك. وفي هذه الحالة كان عليك أن تجعل العنوان كالتالي: «زمن الأخطاء التي أحبها».

ليس هذا مهمّاً، على كل حال، بل الأهم هو أن «تخطئ» فتبدأ عزلةَ الكُتّاب الحقيقيين وتعرض عن ضوضاء العيش الخارجي وطقوسه المكرورة. يكفيك هروباً من الكتابة والتحايل عليها بالرسائل والحكي. آمل أن تصالحها عبر الالتفات إلى الطبيعة. ومحاورة ما اختزنتَه في الأعماق. أتذكر ما كتبتَه، هنا، : «.. لم يسبق لي أبداً أن استلقيت مثل هذا الاستلقاء المشرق، المُشَجَّر. من قبل كنتُ أجري تحت الأشجار ولا أتوقف تحت واحدة إلاّ لأقطف ثمرها، أما الآن فأنا أستظل وآكل من نُضجها. إن الزمن لم يَعُد

يوزّعني، صرتُ أحبسه أينما أشاء...»

وعزلة الكاتب، عندي، هي قدرته وشجاعته على أن يُواجه بياض الورقة بانتظام ليخدشها بكلمات تثير وتستفز وتُبدي العالم على غير ماهو. لكننا نريدك، في عزلتك، أن تحتفظ بتلقائيتك في الحكي الشفوي وبشطحاتك التخييلية واللغوية عندما تكتب الرسائل. هكذا أقول، محورًا كلام الشاعر: «إن أجمل الصفحات هي التي لم تكتبها بعد» فلا تبخل علينا بمثل مسرّات «زمن الأخطاء». مع تحياتي.

محمد برادة 1991/10/17

1

زهرة دون رائحة

قدام الحافلة، التي نزلت منها، اقترب مني طفل متسخ، حافي القدمين، في حوالي العاشرة من عمره .

- الفندق، أتريد فندقا ؟

- سوق الكبيات، أين سوق الكبيبات ؟

- اتبعني .

ينظر إليّ وإلى حقيبتي البالية . أراد حملها . أعطيته خمسة سنتيمات اسبانية . تشاكرنا وانصرف . السوق عامر ببائعي المواد الغذائية والثياب المستعملة والجديدة، في الدكاكين وعلى ساحة السوق . هناك الجالسون والمتجولون . الشمس تغرب . أصوات الإذاعات العربية تُسمع في الدكاكين . تمشيت في السوق بضع دقائق. سألت بائع ثياب بالية عن قهوة السي عبد الله . أشار إليها بحركة سريعة، ولا مبالاة، ومضى ينادي في المزاد العلني بأثمان الملابس التي يحمل

بعضها على كتفه، وأخرى في يديه . يسار مدخل القهوة حاجز خشبي معروضة عليه مأكولات : سمك وفلفل مقليان، بيض مسلوق وركام خبز أسود . الذباب ينطّ على الكل . قرب الوجاق، طاولة كبيرة مستطيلة، حولها أشخاص يلعبون الورق، آخرون حول طاولات أصغر، معظمهم يدخن الكيف . البؤس بادٍ على سحناتهم وثيابهم . انتبه بعضهم إليّ . جلست في ركن . إلى جانبي طاولة صغيرة قذرة . طلبت من الوجاقي شاياً أخضر بالنعنع . فكرت أنه السي عبد الله . كهل جالس قربي يبيع الكيف . ذكرني بعَفْيونَة في قهوة السي موح في طنجة . اشتريت منه لفّة . عمّر لي "شقفاً" (1) من مطويه. (2) كلما طلبت منه السبسي (3) يمده لي عامراً بكيفه ثم أرده عامراً بكيفي . يدخنه أو يعطيه لأحد الجالسين قربه(4) .

جاءني السي عبد الله بالشاي . سألته عن ميلودي صديق حسن الزيلاشي .

– لم يجئ طوال ثلاثة أيام .

في الليل غلبني الكيف، والجوع، والغربة . رشفت من كؤوس شاي بعضهم ورشفوا من كأسي . أحسست بالألفة بينهم . حدثتهم عن تطوان وطنجة ووهران، وحدثوني عن العرائش . قال أحدهم :

– كيقولوا طنجة اللي ما شافاشي كتبكي عليه، واللي شافا كيبكي عليها .

– انها عريقة تهزم كل من يعشقها .

– العهر الفاحش قبّح أجمل ما فيها .

– لكنها جميلة وتاريخها عريق .

تكاسلت في الخروج لأفتش عمّا آكله . صورة الذباب، الذي رأيته عندما دخلت واختفى الآن، تُغثيني، كلّما فكرت في أن

أطلب شيئا من مأكولات القهوة . في الغالب لا أقرف من أي طعام.
أتعبني الجلوس، والوجوه التي فقدت حيويتها . النعاس يغلبني . أغمض عينيّ وأفتحهما بتراخ . شاحبًا يبدو لي كلُّ ما أراه . ذهب أكثر من كان في القهوة . المَقاعد والطاولات فقدت هي أيضا وجودها . ألقيت نظرة على الحجرات الثلاث المقفلة . الحجرة قبالتي دخل وخرج منها أشخاص بائسون . الأخريان مقفلتان . بان لي الحصير الذي هو كلُّ فراش تلك التي فُتِح بابُها . فكرت في أن أسأل السي عبد الله عن ثمَن النوم في إحدىَ هذه الحجرات الجماعية.
كلاًّ . يجب أن أوفِّر . لا أعرف ما ينتظرني في هذه المدينة ! ربت على كتفي صاحب القهوة وأنا غاف .
- سنغلق .
ثلاثة أشخاص يدخنون الكيف حول طاولة اللعب . رجوت السي عبد الله أن يترك لي عنده حقيبتي حتى الغد . طلب مني أن أكشف له عمّا فيها : صورتان شخصيتان كبيرتان مؤطّرتان، سروال وقميصان وزوج جوارب .
همت في طرقات المدينة . لا أثر للحراس من رجال الأمن، أو حراس متاجر الأحياء، والسيارات، كما في طنجة . منتصف الليل أو أكثر . تائهاً أمشي . لا شيء فيها يخيف . طقس معتدل وليلة قمراء . منتزه يطلّ على البحر . أضواء تلمع في البحر . فكرت في ليل طنجة المغري الى حدّ الموت وصيدها البحري : "رأس المنار" "مالا باطا"، "مغاور هرقل"، "سيدي قنقوش"، "المريسة"، و"الرمل قال" . أنا هنا وحدي . القمر ينحجب ثم يبزغ . قطفت زهرة بيضاء من روض المنتزه . شممتها . لم يستيقظ في نفسي أي إحساس . زهور جميلة . شيء لا يفوح منه شيء . جمال سائب . ربما هذا ما يُبقيها مزهرة هنا حتى تذبل أو تُقطف، عبَثا، ثم تُداس . لا شيء عندي أخشى ضياعه في هذه الليلة . إنني

مثل هذه الزهرة التي أسحقها الآن بين أصابعي . سأنام هنا أو في أي مكان آخر . هواء البحر يخفف نعاسي .

عدت إلى الكبيبات . تَقَرْفَصْتُ تحت سقيفة أحد أقواس الساحة. وضعت رأسي بين ذراعي المشبكتين فوق ركبتي . طيلة يقظتي لا عابر أسمع خطواته في الساحة . لا خاطرة أستطيع استعادتها . حتى أجمل الأنغام، التي أحبها، تخطر ثم تنفلت . ذهني خاو كما لو أنه مغسول : كأني لم أختزن أية ذكرى مُسْعِفَة لجَميلها . صداع خفيف في رأسي وطنين . يخيّل إليّ أني أسمعَ نبضات قلبي . ربما بسبب التخدير الكيفي، وفراغ معدتي .

استيقظت باكرا . امتلاء مثانتي يؤلمني وشيئي منتصب. حركة الناس تدبّ في ساحة اسبانيا . اشتريت بسيطة من الشروس . CHURROS [عجين مقلي يصنعه الإسبانيون] في مرحاض المقهى الاسباني تصاعد بولي إلى فوق مثل نافورة . تبلّل سروالي ويدي . تناولت قهوة بالحليب . المقهى يرتاده المسافرون . قهوة السي عبد الله لم تفتح بعد . ركبت حافلة الحيّ الجديد بحثًا عن مدرسة المعتمد بن عباد . حيّ مليء بنبات الصبّار، والغبار، والأزبال، والأراضي البور . مساكنه أكواخ من قصدير وطوب وأهله بَدويون . سحناتهم كالحة مثل أسمالهم . أطفالهم يتغوطون ويبولون قرب أكواخهم . أجابني حارس المدرسة الذي سألته عن مقابلة المدير :

- لماذا تريد مقابلته ؟
- أحمل إليه رسالة .
- هاتها .
- أنا مرسل لتسليمها له في يده .

نظر إليّ كمن أهينَ فيما تعوده ثم مضى ليستشير المدير أو يعود كاذبًا عليّ . عاد وأدخلني عند المدير . سلمته رسالة التوصية التي اندعك ظرفُها في جيبي . أذن لي أن أجلس وراح يقرأها . يبتسم .

ماذا يُسمه ؟ أيكون حسن قد خدعني ساخراً منّي ؟ وضع الرسالة فوق اضبارة مكتبه وسألني "

- من أين أنت :
- من الريف .
- وأبواك أين يسكنان ؟
- أمي تسكن في تطوان وأنا جئت إلى طنجة لكي أُدَبِّرَ عيشي .
- وأبوك ؟
- مات . (أبي سيموت في صيف 1979 ، بعد 23 سنة.)
- وماذا كنت تعمل في طنجة ؟

ها هو التحقيق يبدأ .

- أعمل كل شيء .
- كيف أنك تعمل كل شيء .
- أحترف أيّ عمل أجده .
- هل سبق لك أن دخلت المدرسة ؟

لهجته جبلية .

- أبدا .

لقد وقعت في فخّ . الدم يندفق إلى رأسي بعنف . حسن لم يحدثني عن هذا الامتحان -التحقيق .

" انك ستسلم الرسالة إلى المدير وسيقبلك في مدرسته . " هذا ما قاله لي . جبيني يعرق . قطرات بـــــــارزدة أحسها تتدحرج مــــــن ابطي .

-آسف . لا أستطيع قبولك في هذه المدرسة . من الأحسن أن تعود إلى طنجتك . هناك يمكنك أن تكســــب عيشك كما كنت تفعل .

- لكني أفضل أن أدرس . لقد كرهت ما كنت أعمله في طنجة .

شبك يديه فوق مِرفَقَةِ مكتبه . تأمـــــل رســــالة التوصية .

رفع رأسه :

- كم عمرك ؟

- عشرون .

- هل تعرف ما فعله حسن هنا في العرائش منذ أيام ؟

- لا .

- لقد وجدوه مخموراً في المسجد مع صديق له . إنهما الآن مطرودان من المعهد .

قلت لنفسي : أما أنا فلن أتناكح مع أحد . فيما بعد سأعرف أنهما كانا ينامان في علية المسجد التي ينام فيها التلاميذ الذين لا منحة ولا مأوى لهم . حسن غرَّرَ بي إذن . أجبت المدير بلهجة من يدافع عن تهمة وجهت إليه خطأ :

- أنا لست مثله . (ابتسم) لا أعرف أنه فعل ذلك . ان ما فعله حرام .

في الواقع لم يكن يهمني ما فعله . في طنجة قال لي : " أنا ذاهب إلي تطوان ثم سأعود إلى العرائش . "

- آسف . ان القسم الدراسي الذي تستحقه يدرس فيه أطفال وأنت لك لحية ، والذين هم أكبر منهم سنّاِ يحفظ معظمهم القرآن ، والجارومية ، وابن عاشر .

(معك حق . ولي لحية أخرى في أسفل بطني .) لمست وجهي بتلقائية . لم أحلقه منذ أيام ، وكنت أحلقه كل يوم عسى أن تُطيع الممتَنعات .

فكرت لنفسي : ان الأنبياء لم يكونوا في حاجة الى من يعلمهم. كل شيء كان ينزل عليهم جاهزاً . أما كلّ أحَدٍ فينبغي له أن يتعلم من مثله مثل القرود .

قال بهدوء قاتل :

- آسف .

رن الجرس . من خلال نافذة المكتب أرى الساحة والتلاميذ يتسابقون على المراحيض والصنابير . يتدافعون . يتقافزون . تخيلتني بينهم . فاتني أن أكون واحداً منهم . دخل شخص متعجرف حاملاً كُتبا . طلب منه المدير أن يصحبني ليمتحنني في الرياضيات . ان وقت الدينونة جاء . هكذا فكرت . تبعته إلى حجرة درس شاغرة . أعطاني طبشورة وأملى عليّ أرقاما . لا أعرف كيف أكتب أرقاما في وسطها أصفار . أكيد أخطأت عندما أملى علي أرقاما ثم أخرى أضعها تحتها بالترتيب، طالباً مني أن أجمعها، ثم أرقاما أخرى، في نفس الوضع، أن أطرحها منها . لم يسبق لي أن قمت بهذه العملية إلا في ذهني ثم أملى عليّ أصفارا، وما أصعب الأصفار في الوسط !

عدنا إلى المكتب . لم أرتح إلى هذا المعلم . ان القرود تتلاطف فيما بينها، أما هذا فلم يفعل . شعرت أني بذلت مجهودا كبيرا . أن أحمل خمسين كيلو غراماً من الثقل وأسير به كيلومترا أخفّ عليّ من بذل هذا المجهود الذهني .

وجدنا مع المدير شخصاً لابساً الجلباب . سألني بالإسبانية عن اسمي، ومسقط رأسي، وسنيّ، وطنجة، وما كنت أعمل فيها . أجبته فاستبشرت ملامحه :

- أين تعلمت الاسبانية؟

- مع جيراننا الغجر، والأندلسيين في تطوان وطنجة .

لم يكن متجهما مثل معلم الحساب . فكرت في أنه ربما يدرّس الاسبانية . قد يكون المدير طلب منه أن يمتحنني شفويا . طلب مني المدير أن أرجع غدا .

مشيت عائدا إلى المدينة . سلكت طريقاً غير الرئيسية المعبَّدة، المُزفتة، التي جئت منها، الطريق مغبرة، قدماي تغوصان في ترابها الرملي، على جانبيها سياجات من التين الشوكي، وأكواخ يخرج

منها أطفال حفاة، أنصاف عراة، وسخون، وكلاب هزيلة، لقيطة ودميمة، ودجاج ينقب الخراء. في نهاية الطريق بئر عارية معطّلة، دنوت منها، أطللتُ على هويتّها (5) المظلمة، صمت عُمْقها أغراني بالسقوط، صَمْتٌ أيقظ في نفسي كلّ يأسي: صمتيَ الأبدي، التقطتُ حجراً كبيراً جَهَدتُ في حمله وألقيته في الهَوِيّة، سمعت دوي سقوطه في القاع الجاف ثم صمتاً، وأنا مطل على الظلام، ورائحة مقرفة، دافئة، مختَزَنة، تتصاعد من القَاع. ابتعدت عن فوهة البئر الخَنِزَة.. ، ظل طنين السقوط في مسمعي لحظات، تخيلتني ذاك السَقوط الأصمّ. لستُ حجراً. ربما سأظل أنزف في هوية البئر حتى أهمد. الأفظع ألا أموت. لست حجراً. استأنفت سيري. صوت السقوط يجذبني إليه بسحر قَويٍّ وأنا أقاومه حتى أنقذتني شجرة انبطحت تحت ظلالها الوارفة.

كان شاب قد ألقى بنفسه على صخور ميناء طنجة. جاءت أمه من بادية الفحص وذهبت إلى المقبرة. قصّت مأساة ابنها على الحارس.

شرح الكلمات الدارجة:

(1) الشقف: يشبه كشتبان الخياط في حجمه وشكله تقريبا، مقوس ذو فوهتين، أو هو يشبه القشرة الملتصقة حول أسفل ثمرة شجرة السنديان، وهو عادة يصنع من الفخار، وفي حالة نادرة من الألومنيوم، وفي حالة أندر من الذهب الخالص.

(2) المطوي: وهو مخفظة صغيرة مستطيلة أو مربعة تصنع عادة من جلد الماعز أو غيره، تلف مرتين أو ثلاثا، وينتهي طرفها الذي تُربَط به بخَيط من الجلد لشَدّها، وهناك "النبولة" التقليدية وهي مثانة الكبش أو العجل، وكلتاهما تستعمل لحَفظ مَسحوق الكَيف.

(3) السبسي: هو قضيب يدخل طرفه الأسفل في فوهة لتدخين الكيف، ويصنع عادة من الخشب، لكن هناك من الموسرين من يصنعه من الفضة، وقد عرفت حشاشاً، اغتنى ببيع الحشيش، صنعه من الذهب الخالص، وهو اليوم يقضّي معظم وقته يحدق في الشمس من شروقها إلى غروبها، بعد أن أفلس في تجارته، وعاد إلى التدخين في السبسي المصنوع من الخشب، إنه غليون الكيف.

(4) هذه عادة معروفة بين مدخني الكيف في المقاهي الشعبية، وهم أيضا يتبادلون الرشفات من كؤوس بعضهم البعضُ برهاناً على إلفتهم وتصادقهم.

(5) البئر البعيدة القعر جمع هوايا.

" لا أعرف شيئاً عما تحكينه . لقد دفنا كثيراً من الأموات هذه الأيام . اذهبي إلى المصلحة المسؤولة في العمالة عن تسجيل أرقام الموتى الغرباء . اذهبي عندهم وقُصّي عليهم حادثة موت ابنك . هناك «سيقولون لك رقم قبره اذا عرفوه». " يا لهذا الزمان . لم يبق من ابني الحبيب عبد الواحد سوى رقم، إذا عرفوه ! "

كانت امرأة بائسة . جاءت ورفعت وجهها المكدود إلى السماء، وبكت ضارعة إلى الله أن يغفر لابنها اثمه . ندبته حتى أغمي عليها ثم أفاقت مهووسة بابنها، وانصرفت عائدة إلى قريتها . تذكرت أن أمي هي أيضاً امرأة بائسة : تصليّ من أجلي، وتضرع إلى الله أن يحفظني من كل مكروه .

حين يفرّ السادة يموت العبيد .

عمال ومشردون يتجمعون في ساحة اسبانيا . الأصوات تصرخ في هياج :

- ليسقط الباشا .

- ليسقط الخونة .

يندفعون نحو منزل الباشا صائحين :

- اساطْ اباطْ، الباشا تحت السّباطْ : (الحذاء)

كان باشا المدينة قد ذهب إلى سوق "ثلاثاء الريصانة"، وألقى هناك خطاباً على الفلاحين . لم يرقهم خطابه فشتموه ورموه بالحجارة وضربوا بالهراوات فأطلق حراسه النار عليهم .

- لا بد أنه تكلم معهم بلغة ما قبل الاستقلال (1)

- انظر، انهم يتكاثرون مثل النمل !

المسيرة بدأت في صخب : رجال ونساء وأطفال . " رجال النظام " (2) يحيطون بالمتظاهرين . ينظمون المسيرة والهتافات المعادية للباشا . شارة الراية المغربية على سواعدهم (3) تؤكد سلطتهم .

- لا أحد جاء من رجال الأمن .

- لا أظن أنهم سيجيئون . صدرت إليهم أوامر بعدم التدخل .
كل الناس يعرفون الآن أن الباشا ضدّ الاستقلال .

الأطفال يرددون نفس الهتافات المعادية للباشا التي يهتف بها الكبار . يطعنون في الهواء أشخاصاً وهميين صارخين . يتعلمون القتل بمختلف الأسلحة : حجر يتخيلونه قنبلة ثم يرمونه في الفراغ : بوم، بوم، بوم . . . ! عُصَيَّةٌ تشكل لهم خنجرا أو مسدسا ، هراوة ، بندقية أو رشاشاً . . . كانوا يتصرفون أكثر عدوانية من الكبار . توقفت المسيرة قبالة المنزل . هتافات :

- سلموا أنفُسكم .

طلقة نارية ، في الهواء ، من إحدى نوافذ منزل الباشا . تراجع الجمهور إلى الوراء . صاح أحدهم :

- لا تخافوا . إنهم يحاولون تخويفنا

أخرج "نظامي*" مسدسا . آخر يحمل بندقية قديمة . يدخلان منزلاً مواجهاً لمنزل الباشا . تبادلُ إطلاق النار من المنزلين (4) . تَفَرَّقوا . هربوا . عادوا . اصطفت، قرب منزل الباشا، فوق الرصيف ، فرقة عسكرية اسبانية يرأسها قبطان .

-إنهم خائفون . لا يقدرون أن يطلقوا علينا . يحاولون اخافتنا. سنحرقهم في المنزل .

عاد أشخاص حاملين صفائح نفط . أشعلوا النار في مَرأب المنزل. كَفّت الطلقات من منزل الباشا. فجأة انفتح الباب وظهر عبدُ الباشا رافعاً رشاشه فوق رأسه ، أسود وضخم، صاحت الجموع :

- رابَــح ! رابَــح ! ها هو رابَـح!

حاول القبطان منعهم من الهجوم على العبد ، لكنهم جُنــّوا مُندفعين إليه . ألقى رابَح برشاسه على الأرض، الدماء تسيل على وجهه، لم تندَّ عنه صرَخة . نَشبوا أظافرهم في ثيابه، ولحمه . يُهوون عليه بالهراوات، ترنَّح تحت الضربات الوحشيات المجنونة

ثـم سقـط . جيش يندفع لتمزيقه بـختلف الأدوات . يسحبونه إلى عرض الطريق . النساء يزغردن . الأطفال يبتهجون صارخين . انبثق رجل من بين الزحام تَجَمَّع فيه كلُّ جنُونهم وكسَّر زجاجة نفط على رأس العبد ، آخر يشعل النار في طَرَف هراوة منقوعة في النفط ويرميها عليه . يبتهجون بجنون . احتفال بدائيّ ، ابتهاجات وصرخات غضبى على الضَّحية .

– مُتْ باباك الخنز !
– مُتْ باباكْ الجرو !
– مُتْ باباكْ ! مُتْ باباكْ !

يتمرغ منتفضاً وجسمه شعلةٌ هائلة . همد ، رائحة الشَّجم البشرى تقرف . كتلةٌ فَحمية متهرئة ، يطعنونه بالسكاكين والسواطير وبأظفارهم ، إنهم يفترسونه ، امرأة خطفت عظم الساق ببعض لحمها وعضَّت عليها بوَحشية ، ثم لفَّتها ، بجُنون ، في قطعة ثوب ، مزقتها من ثيابها ، ودسَّتها تحت إبطها واختفت .

– ماذا ستفعل بذلك العظم ؟
– ستسحر به لزَوجها حتى لا يضربها أو يعشق امرأة أخرى أو يطلقها ، هكذا يقولون .

بعد لحظات لم يبق من الجثة غير بقايا أحشاء ورائحة شحم مقيئة ، يخْرجون الأثاث من المنزل ويُراكمونه في عرض الطريق . سلبٌ وإحراق ، أشعلوا النار في بعض الأثاث والكتب . سلبٌ وإحراق ، صرخ رجال النظام في الهائجين :

– الكتب لا تحرقوها . سنحملها إلى مركز الحزب (4) .
سُحُبُ الدخان تنبعث من المنزل . تجاوبت زغاريد النساء

المتظاهرات، وصرخات الأطفال الشرسين . الاسبانيون المدنيون يشاهدون ما يحدث، في صمت، من نوافذ وشرفات منازلهم .
الجنود الاسبانيون لم يتحركوا من مكانهم على الرصيف. تراكض المُتظاهرون مُتَفرقين جماعات نحو اتجاهات منازل عملاء الباشا. وصلت شاحنة وسيارة جيب. أخذوا يشحنون الكتب، والأثاث الثمين، الذي لم يحرق أو هو نصف محروق . رجال النظام يعترضون طريق الذين سلبوا بعض الأثاث وينزعونه منهم . هناك من خلع ثيابه وارتدى ما سلبه من ركام الملابس . اقتحموا منزل عميل في طريق بَرشلونة . لم يجدوا أحدا . نهبوا وأحرقوا . جُنُّوا من جديد راكضين نحو منزل مُتَّهم آخر بالخيانة الوطنية . ظهرت جماعة هائجة من باب الكبيبات تجر بعنف عجوزاً على الأرض فاقد الوعي يطعنونه بالسكاكين .العجوز الآن شبه عار (5) عيناه زائغتان . كتلة جسدية فقدت انسانيتها . قيدوه من أطرافه بالحبال، وصلبوه إلى شجرة، قبالة باب الكبيبات . صَبّوا عليه النفط وأشعلوا فيه النار . صرخات وابتهاج وزغاريد وقفز . الشحم البشريّ بدأ يفوح في ساحة اسبانيا . عينا العجوز تجحظان . تدوران في محجريهما . ينتفض جسده . الإسبانية، بائعة الشروس، تصرخ (حانوتها جنب باب الكبيبات، قبالة شجرة المصلوب) .

-- يا إلهي، لا ! لا! لا!...!
أغمي عليها . قيل ماتت بالسكتة القلبية .
في الليل خلت الشوارع إلاّ من بعض المتشردين يجمعون بقايا الأشياء المحروقة في منزل الباشا، ومنازل العملاء . أمام الشجرة توقفت سيارتان : واحدة للإسعاف وأخرى للأمن . رجال الإسعاف مُقَنّعون ولابسون قُفازات من المطاط. يَجمعون أشلاء الجثة المتناثرة في صندوق ورجال الأمن يحرسون الساحة كلّها .

ضَخوا مسحوقاً داخناً على الشجرة المحروقة، والأرض، فامتلأ جزءٌ من الساحة بضَباب ذي رائحة كريهة خانقة، لكن رائحة الشحم البشريّ كانت أقوى: ظلّت عالقةً في شامات الناس .

---

(1) كان الباشا عميل الاستعمار الاسباني .

(2) حدث في طنجة، بعد الاستقلال مباشرة، أن بعض المتحمسين لسيادة النظام بين الناس كانوا يسمحون لأنفسهم بأن يتزيّوا بملابس عسكرية، بقطعة واحدة (بنطال أو سترة أو قبعة) أو بذلة كاملة، بحرية أو برية أو جوية موسومة برتبة ضابط وساعد شارة الراية المغربية . كانوا يبادلون بها بحارة البواخر الحربية الأمريكية وغيرها أشياء من الصّناعة التقليدية المغربية. لم تكن السلطات تعترض عليهم . لقد كانت كثير من الأشياء مُباحة في تلك الأيام .

(3) كانت الطلقات تصدر من منزل الباشا من عدة نوافذ . وتبيَّن فيما بعد أنه لم يكن داخل المنزل غير رابَح المشهور في المدينة بعبد الباشا . كان الناس يظنون أن الباشا ما زال موجوداً هناك بينما عرفوا، فيما بعد، أنه فر إلى اسبانيا مع زوجته الإسبانية عن طريق تطوان، وسبتة، تحت حماية الاسبان إلى حد قطع الاتصال التيلفوني بين العرائش وتطوان .

(4) حزب الاستقلال .

(5) في ذلك اليوم كان يكفي أن يتَّهم أحدُ المتظاهرين أيّاً كان بالخيانة فيحرق فوراً . كان العجوز (الشريف السوماتي) المحروق قائداً سابقاً في قرية خميس الساحل . قيل، فيما بعد، أن أحد المتظاهرين كان مديناً له بمبلغ من المال، عاجزا عن تسديده، فدبر له هذه المكيدة حتى يتخلص منه .

2

أول درس

صحبني المدير إلى القسم وقدمني إلى المعلم :

- السي محمد ، هذا الولد سيدرس عندك .

خرجا قدام الباب وتكلما : لا شك يتكلمان عني . أكيد أن المدير جاء بي إلى هذا القسم ليضعني تحت الاختبار . قد يقول لي بعد أيام : "إنك لا تستطيع أن تستمرّ في الدراسة هنا . أحسن لك أن تعود إلى طنجة . "

تهامس التلاميذ ناظرين فاحصينني . احسستُني مسروقاً بينهم ، لم يسبق لي أن كنت بين أكثر من أربعين شخصاً يفحصونني من تحت الى فوق. في القاعة تلاميذ في مثل سنّي ، لكنهم يعرفون القراءة والكتابة. على السبّورة ، درس مكتوب ، وأمامهم الدفاتر ، سأعرف أن هؤلاء الكبار جاءوا من البادية .

عاد المعلم وأجلسني ، في الصف الوسط ، إلى جانب أصغر

تلميذ في القسم. في حجرة الدرس ثلاثة صفوف : عن يميني أربع تلميذات ناهدات في المقاعد الأولى .

المعلم :

- هذا رفيق جديد . حاولوا أن تتعاونُوا معه .

نظروا إلي مُتَهامسين، متحركين في مقاعدهم . ضرب المعلم بمسطرته على مكتبه . سكتوا . معظمهم يلبس الجلباب . نظراتهم مبهورة . كان سهلاً عليّ أن أميز البدويين منهم، والمدنيين، من خلال ملامحهم وهندامهم . يَنقلون الدرس المكتوب على السبوة . تُرى ماذا ينقلون ؟ أمامي دفتري، وقلمي، في انتظار كيف أبدأ أول درس . كانت رموز العالم تنتقل إلى صفحة رفيقي في الطاولة وصفحتي بيضاء . أحدقُ فيهم وأفكر : يكتبون بخفة . أيتركني المدير أتعلم مثلهم ؟ إذا لم يتركني فحتماً سأعود إلى طنجة لكي أعاشر محترفي الفسق دون أن أعرف شيئاً، مما يحدث في هذا العالم، من خلال رُموزه . ما دمتُ قد جئت فينبغي لي أن أعلم . "الحياة الحقيقية توجد دائماً في الكتب . " هكذا قال شخص في طنجة .

تَمَشّى المعلم ببطء ناظراً إلى كتابة بعض التلاميذ دون أن يتوقف حتى وصل إلى طاولتَي . رجل هادئ، ودود . لا شك أنه لم يعش مع أولاد الزناء . انحنى على دفتري وكتب على الصفحة الثانية كلمات : كل واحدة في سطر، ناطقاً إياها بصوت خافت ثم طلب مني أن أكرر كتابة كل كلمة حتى يمتلىء السطر . لم يكفّ رفيق طاولتي الصغير، النحيف، والوديع، عن النظر إلى دفتري وإليّ، وإلى يدي، منذ رآني أحاول كتابة كل كلمة بمَشَقّة . يدي ترعش مع خطّ كل كلمة . نظراته المختلسة تُضاعف منَ رعشتي وتشنُّجي .

لم أعرف أني كنت في القسم الثالث إلا بعد يومين : (المتوسط الأول حسب مصطلح اليوم)

ملأت السطور الثلاثة . مرة أخرى ضممتُ ذراعيّ ناظراً إلى المعلم متمشياً بين الصفوف أو إلى التلاميذ مُنكبين على نقل الدرس. بعضهم كان قد انتهى من الكتابة. اقترب مني وألقى نظرة على ما كتبته :

– حسنا. قريبا ستتعلم، إن شاء الله!

ثم طلب من رفيق طاولتي أن يكتب لي كلمات في مستوى ما كتبت .تهامس التلاميذ . استقام المعلم واقفاً ومَسح القسم بنظرة شاملة . سكتوا . فَرِح رفيقي، بنظرات وحركات، أكثر مما فرحت. شَعَرتُني أقل واحدٍ بينهم . لم أكن أعرف سوى الحروف التي علّمني إياها حميد في طنجة . حزنت . مذنب . مكاني ليس بينهم . لقد جئت من عشيرة القوّادين، واللصوص، والمهربين، والقحاب . لكأني في مكانٍ مُقدسٍ أدنسه، ولكن قد يكون بينهم من هم أبناء هؤلاء المنحوسين مجتمعين . عزّيت نفسي. إنني في مطهر إذن . لو لم يأتوا، هم أيضا، إلى هنا، فلربما يصيرون مثلما كنت . زالت كآبتي وأنا أدافع عن نفسي حتى ولو كنت مخطئاً فيما تصورته عنهم.

صارعتْ فكرة البقاء هنا أو العودة إلى طنجة . إن مرجي الآسن ينتظرني هناك أو في أيّ مكان آخر، لكنني سأبقى هنا حتى ولو زالت زرقةُ السَّماء إلى الأبد في حياتي .

كتب لي رفيقي كلمات ناطقاً إيَّاها بخفوت مثل المعلم. شكرته ورعشت يدي، وأجهدت نفسي من جديد مُحاولاً تقليدَ خطّه الجميل . منذ تلك اللحظة صرت أتعلم من التلاميذ أكثر ممّا أتعلم من المعلمين .

3

في المطعم

كنا نتسابق، على حيازة المكان الأول في الصف، قبل الدخول إلى المطعم. يراقبنا معلم مدة أسبوع، أثناء وجبتي الإفطار، والغداء، ثم يخلفه معلم آخر. للبنات صفهنّ، يدخلن قبلنا. لم يكنّ جميلات. واحدة كادت أن تكون. الحمحماتُ والهمساتُ تختلط برنين الملاعق والصُّحون. المعلم الحارس يتجول داخل القاعة. أحياناً يخرج قدام الباب موليا لنا ظهره، ناظراً الى فراغ الساحة. حينئذ يكثر ضجيجنا، ويتعالى، فَيَنهرنا صارخا :

– الحمير ... من لا يريد أن يأكل ويسكت فليغادر القاعة.

ثم يعود إلى تدخين سيجارته عند العتبة. كان هو المعلم المتجهم الذي اختبرني في الحساب. الفقر مسخ ملامحنا. لم يترك لنا سوى ما هو إنسانيّ فينا. ربما يصرن جميلات، هؤلاء الصبايا، إذا كافحن فقرهن، في المستقبل. الصحن الأول من القطنيات. نجده جاهزاً

على المائدة . الذباب يتساقط في الصحون. لا بدّ، أحياناً، من إزالة ذبابة أو أكثر من الصحن، ميتة أو ما زالت تكافح حياتها. يغرقها في المرق من لا يعاف ثم يزيلها حتى يحلّ الطعام وتموت الجراثيم فيأكل. (يعتقد بعض الناس أن أحد الجناحين فيه جرثوم، وفي الآخر ما يبيده) ما زلت أتساءل عمن اخترع هذه الوصفة الذكية عن سقوط الذباب في طعام وشراب الجياع . ربما لتسكين آلامهم! إن البخار يكون ما يفتأ يفور من آخر الصحون التي وضعت . أتعمد الجلوس في آخر القاعة حتى يُتَاح لي اختلاس كسرة خبز من بعض أوائل الموائد قاصداً مائدتي الأخيرة في الصف أو قبلها . الطعام لا يكفينا، نحن الكبار . نطعم حتى الفتاتات المتساقطة . نستغل أيضاً فُقدان شهية المرضى الحاضرين أو المتغيبين فنسطو على الفائض . الصحن الأول نلتقمه بحذر، لأنه لايخلو من الحصى . أذكر واحداً منّا مضغ شظية زجاج صغيرة، في صحن الأرزّ، فبصق دما . الصحن الثاني فيه بيضة مقلية أو سمكة مع صلصة طماطم أو قطعة لحم . غالبا ما تكون قاسية أو مطاطية فنخشى بلعها حتى لا تنحصر في الحلق. (نقتصر على مضغها ومصّها ثم نتفلها) القطنيات والخضر هما الأساس في طعامنا. أقتنص ثلاث أو أربع ذبابات خارج المدرسة . ألفها في وريقة كي أرميها في صحن، أو إثنين، قرب مائدتي .

أحيانا، حتى لا أتأخر عن الدخول، أصطادها في المراحيض . ليس هناك ذباب قذرٌ وذباب نظيف . رغم احتياطي، عند وضع الذبابات، فإن رفاقاً يرمقونني . لا أحد وشى بي . ضبطني معلم الحراسة بنفسه أختلس كسرة خبز فصفعني وطردني من المطعم مدة ثلاثة أيام . تضامن معي بعض الرفاق فراحوا يوفرون لي من وجباتهم كسرات خبز وسمكات، وقطع لحم صغيرة . المعلم كان أعدل من أن يُشفق .

كنا نحترم فقرنا ونتآزر . كلّنا، تقريبا، كنا فقراء . إن فقرنا

يعتبره المستَغلّون شيئا طبيعيا .

بعد ذلكَ التهالك على الغذاء أكون في حاجة إلى النوم حتى أعوض ما فاتني في الليل . خارج المدرسة هناك مقعد من الإسمنت المسلح ملاصق لأحد جدرانها . أحياناً يَعمُقُ نومي فيفوتني درس أو كلُّ الدروس .

كان في الحي كسيح مُتفوقاً على كلّ التلاميذ في الرياضيات . ربما كان أيضاً متفَوقاً على بعض المعلمين، كما سمعت تلامذة قسم الشهادة يقولون . انقطع عن الدراسة في مستوى الشهادة الابتدائية دون أن يشارك في امتحان الالتحاق بالتعليم الثانوي . أمه ماتت وأبوه هجر المدينة منذ أعوام ولم يعد قطّ . لا خبر عنه.

ترك كسيحه مع خالته البكماء الصّماء تكسب العيش من نَبش أزبال الصباح الباكر وتسترزق الله بالتسول في محطة السفر. يقوم بالعمليات الحسابية والتلاميذ حوله يسألونه وهو يفسر لهم حلّ العملية بعدة طرق . تقديراً لذكائه الرياضي يعطيه بعض التلاميذ ستيمات، أو سجائر منفردة، أو شيئا من الأكل .

أحياناً يتراهنون على حل إحدى العمليات، فيما بينهم، أمامه فيقاسمه الرابح نصيب المخاطرة . كان يقدم لنا مساعدته دون مُقابل مَشروط . حين يُسعفني الحظّ في الحصول على بعض البسيطات أشتري له سجائر شقراء التي كان يفضلها على السوداء . أشتريها من تجار العربات المتنقلة في المدينة الذين يبيعونها منفردة .

أذهب إلى حقل قريب من المدرسة . أستلقي في ظلال شجرة وأدخن الأعقاب التي التقطها من شوارع المدينة في حالة إفلاسي التام . أتخيل أشكال السُّحب العابرة حيوانات ضخمة، أسطورية دون أن أفكر في شيء، أو أستعيد الأكثر متعة من ذكرياتي في طنجة : ذكريات الأفخاذ، والرّبوات الجميلة، والصدور الناهدة، فأستمني. إن هذا المزيج من الذكريات المتالة يسلمني إلى غفوة أفيق

بعدَها وكأني نمتُ ساعات . هناك مقبرة نصرانية أترددُ عليها . أتجول بين ممرات قبورها . أجد إمتاعاً، في محاولة قراءة الأسماء، والعبارات، على الشواهد، حتى في التي اقرأها ولا أفهما . لا أعرف ما يحفزني دائماً إلى التجول في المقابر؟ أهوَ سلامُها أم هي عادتي أيام نومي فيها؟ أم حبّاً في الموت ؟ (1)

(1) ما زلت أمارس هذه العادة حتى اليوم . بعض كتاباتي - منها الجزء الأول من سيرتي الذاتية : الخبز الحافي - وهذه التي أكتبها اليوم، كتبت فصولاً منها في المقابر اليهودية، والنصرانية، والاسلامية خاصة المقابر التي يرجع عهدها إلى القرن التاسع عشر في طنجة، ربما لأن المقابر القديمة أكثر إيحاءً أو لأني أحب الموت القديم !

4

القمل المحروق له رائحة بشرية

عاد حسن من تطوان . لقد سوّى مشكل عودته إلى المعهد مع نائب وزارة التعليم الاقليمي . بدأنا نلتقي خمسة أو ستة من الزيلاشيين في مقهى السني عبد الله . كلهم يدرسون في المعهد . بعضهم يستفيد من منحة خارجية وبعضهم غير ممنوح . في نهاية كل أسبوع يستلمون من أسرهم حاجياتهم أو يسافر بعضهم إلى مدينته . حسن لم يكن يعتمد قطّ على أسرته . كان وإخوته قد جعلوا متجر أبيهم يفلس منذ سنوات قبل أن يقتسموا ما تبقى فيه بعد وفاته . يشتري حسن بعض البضائع الخفيفة : مكبّات الخيط ، والإبر ، وعلب الشوكولاته من المخازن ويبيعها للدكاكين الصغيرة في الكيبيات وغيرها . مرة صحبته فاشترى مكبات خيط من متجر يهودي وباعها لدكاني مغربي على بعد أمتار بضعف الثمن الذي اشتراها به .

ندخن الكيف لأنه أرخص من السجائر ومفعوله أقوى منها . أعيش على صدقاتهم الصغيرة وغيرهم من رواد المقهى الفقراء مثلنا . يعلمونني المواد التي أدرسها أو يراجعونها معي في دفاتري . حسن يعلمني الانشاء بمحبة ولا يتذمر أبدا . أخطائي كثيرة ، لكن تجاربي في المواضيع جيدة . عندما أسأله عن قاعدة نحوية يقـــول لي : " لا تعبأ بعلة المنصوب أوالمرفوع . المهم هو أن تعرف الكتابة والقراءة السليمتين . هناك من يعرف قواعد النحو بشكل جيد ، لكنه إذا كتب أو قرأ قد يرتكب أخطاء القاعدة التي يحفظها ويعرفها في أكثر من مرجع نحوي . "

فكرت : أهو ما يقوله حسن صحيح أم أنه يبرر جهله في النحو؟ فيما بعد أدركت أنه على حق . ميلودي يراجع معي الاسبانية التي يتفوق فيها على العربية ، انه من أكسل تلاميذ المعهد ، ومن أكثر المدخنين للكيف بيننا . في المساء يجتاحني جوع يصيبني بالسخفة واضطراب نبضات القلب . ان وجبة الغداء المدرسية أستنفد طاقتها قبل نزول الظلام . الكيف يضاعف جوعي ، لكنه لا بد منه لتخدير الهمّ والقلق . في الصباح قلما أصل في الوقت المحدد للإفطار في مطعم المدرسة قبل الدخول الى القسم . لا أنام جيدا بسبب الجوع والبرد ، وحكّ جلدي الوسخ وشعر رأسي والتسكع في الليل . عندما ينتهي ليل المحظوظين في الشارع يبدأ ليلي المشؤوم فيه . غالباً ما يحتفظ لي أكثر من رفيق بكسرات من الخبز آكلها مع الماء في سخط . المسافة ، بين المدينة والمدرسة ، تستغرقني ربع ساعة أو أكثر مشياً على الأقدام . أيام الشتاء يزداد فيها يأسي . أذهب في المساء إلى الملجأ الخيري . حوالي ربع ساعة من المشي . لم أكن مسجلا رسميا للأكل في المطعم . يعطيني المكلف ، شفقة ، خبزة صغيرة واضعاً بين شطريها مَرَقا وشريحة لحم أو شحمة ، أو سردينات مقلية . اذا سقط المطر لا أجد في الطريق مكانا يحميني غير شجرة

تكون قطرات أغصانها أكثر إبلالاً . أحيانا يكون المكلف غائبا فأعود أكثر جوعا لاعنا كل من أراه يأكل . مرة ذهبت يوم الجمعة وقت الغداء . الكسكس هوالطعام الذي لم أستسغه قط في حياتي وأنفر من دعواته . ربما لأنه كان هو الطعام الذي أكله المعزون مع الكرشة بعد جنازة خالي في الريف أيام المجاعة . كنت في السابعة من عمري . دعاني المكلف للغداء مع نزلاء الملجأ . جلست مع أربعة عجزة حول المائدة . أقرفتني شيخوختهم وعاهاتهم . لقد كانوا أكثر الناس طلبا للرحمة والانسانية : هذا أعور، وهذا أحول الفم يسيل لعابه، وذاك أدْرَدَ (عديم الأسنان)، وآخر ترعش يده، إلى آخر العاهات . انعكست عليّ مشوهاتهم . تلك أول مرة آكل فيها هناك وآخرها . ينظرون إليّ عاجنين مضغتهم باستلذاذ وتَلَمُّظ . خجلت من نفسي أيضا لأنه لم تكن فيَّ أية عاهة . وضع لي الخادم صحني . أكلت الخضر بسرعة . لم أذق الكسكس وشريحة اللحم التي تتمطط ولا تتمزق بين أسناني كما في مطعم المدرسة . هم يبلعونها بعد مضغ يائس . أتساءل عن كيف يهضمونها ! أخرجت منديلي متظاهرا بمسح فمي فبصقت فيه المضغة المطاطية . أعطاني المكلف خبزة حافية للعشاء وغادرت ومعدتي تتخاصم فيها القطط والتقيؤ يكاد يغلبني قبل أن أصل إلى عتبة الباب . في الطريق إلي المدينة تسلطت عليّ وجوههم . لكأنهم خرجوا من كهف مكثوا فيه زمنا . ليست الأشياء هي مقرفتي إنما هو الانسان المُشَوَّه . أحسست بمَغَصٍ في معدتي . دنوت من شجرة وتقيأت المحتوى كله مختنقا حَتى لم أعد أتقيأ غير الهواء . دمعت عيناي ودخت . استرحت قليلا ثم استأنفت سيري . السلهامي لن يبخل عليّ بسمكة يُشَهي لي بها خبزتي الصغيرة .

اشتياقي إلى لعينتي طنجة يُحزنني . لها عندي طعم مُغرٍ حتى في أحقر ظروفي فيها . لا أكاد أغادرها سئما منها حتى يوتّرني حنينُ

جنوني بها كما كنت في وهران أشتاق إلى تطوان . ثيابي تتسخ وتبلى وتفوح منها روائح جسدي . القمل يعشش فيها . حذائي يتسرب اليه الماء . شعري يغزر ويتدبق وسَخا . أحكّه باستمرار حتى يسودّ ما بين أظافري . حين أمشطه إلى الأمام، لأنظفه من قشرة الرأس والغبار، يتماشَطُ منه قمل أسود نشيط . في كل مشطة لا أقل من ثلاث أو أربع قملات سمينة، تتحرك بحيوية . موجها إياها -بعود صغير- أجعلها تتسابق ثم أضعها في قصاصة ورق وأحرقها بوقيدة لأتسلى بطقطقة احتراقها .

أبقى في القهوة حتى تغلق (1). بعد منتصف الليل أهيم في الشوارع منتظرا باب الله (المسجد الكبير) أن يفتح عند صلاة الفجر . أنام، في أحد أركانه، على حصير تفوح منه رائحة الرطوبة البشرية . الحارس الخفاشي الدائم، أو أيّ نعاق مسجدي عابر، يأتي فَيُزعزعني في سباتي ويطردني قائلا :

– هذا مكان الصلاة والعبادة وليس للنوم .

أتوسل إليه أن يتركني . حين يعند، غيّاً، ألعن فزج أمه، وشجرة أسلافه، جهرا، وأخرج حافياً وحذائي في يدي الى الدروب من جديد .

ذات صباح باكر كنت مكوراً في ركن . أحسست بجسم يتعثر في جسمي ثم يهوي فوقي . أفقت لألعن في غضب . انه المختار الحداد الأعمى . سمعت عنه . تلميذ في المعهد الديني . معروف بحججه في التحصيل الدراسي . متفوق في اللغة العربية وأصولها . يحفظ القرآن والحديث النبوي، والشعر العربي، الملعون منه والمعمَّد اعتذر لي جدَّ آسف . حين عرف أني أدرس أخرج من تحت جلبابه الصوفي كتاب "مدامع العشاق الثلاثة" لزكي مبارك . عرض عليَّ أن نفطر معاً على حسابه في مقهى سنترال ونقرأه . كان يوم الأحد .

(1) في انتظار موعد الاغلاق . يتركني صاحب القهوة أتمدد فوق المقعد فأغفو، رغم ضجيج لاعبي الورق، متوسداً دفاتري . في الصباح أجد لطخاتِ دمٍ وبقّاتٍ مسحوقة بين أوراقها .

خارج المسجد كاشفته قليلاً عن حياتي، والظروف التي حفزتني الى الدراسة في العرائش . تآزرنا . يتأوه إثر كلّ كلمة أقولها أو يقولها. هو أيضا بائس، لكنه ليس متشرداً مثلي . يتيم . لم يتلاعن مع أبيه. لا بدّ أن الله مسرور بهذا اللقاء . له أخ يكبره يعول أسرته، وآخر أصغر يدرس . ردّدَ عليّ مرات، بعربية فصيحة :

– كل شيء يهون ...

يعرف مسالك الشوارع والأرصفة وأفاريزها . عند العبور إلى رصيف آخر يستوقفني على الإفريز . يلتفت يميناً ويَساراً كأنما هو الذي سيقودني ثم يقول :

– هيّا بنا الآن !

انه يرى بسمعه . أتركه يمارس خبرته كما لو كان وحيدا . اشترينا "الشروس" وذهبنا إلى مقهى سنترال . بعد الافطار أخذت أقرأ له كتاب مدامع العشاق الثلاثة . عندما أعجز عن نطق كلمة صعبة يساعدني على قراءتها طالبا مني اعادة قراءتها أكثر من مرة . قال لي :

– إن العربية لغة صوتية

أنا الآن أتكلم عن سنة 57 . وفي الثمانينات قرأت كتاباً عنوانه : «العرب ظاهرة صوتية. »

يشرح ويعرب أو يصرّفُ فعلاً صعبا . هذا هو الذي سيكون معلمي الحقيقي وأنا قارئه الملازم . طُزْ في المعلمين الذين ليس لهم صبر جميل للتعليم !

أقرأ أي شيء مكتوب : كتاباً معاراً أو مسروقاً، أو ورقة مكتوبة من على الأرض، أغلبها بالاسبانية . عناوين المتاجر والمقاهي يستحوذ عليّ هَوَسُ قراءتها ونقلها، أحيانا، على ورقة أو دفتر المسودات . هي، أيضا، كُلُّها، تقريبا، بالاسبانية . كنت أستعجل تعليمي بجنون في جميع الظروف القاسية . كان رامبو على حق

عندما قال : "ليس من الخير أن نُبليَ سراويلنا على مقاعد الدراسة" . هو الذي كتب ورأى .

صارت القراءة والكتابة عندي هَوَساً في الحلم واليقظة . أتخيل نفسي، أحيانا، حرْفاً كبيراً أو قلَماً . بئس الحلم المكوبس! أحيانا، لا أجد ثمن شراء دفتر فألتقط الأوراق البيضاء المستعملة لأكتب عليها دروسي . اذا هي تلك التي يُلَفُّ فيها الشروس فالكتابة تنعدم في بقع الزيت . كلمة هنا وكلمة هناك . أتسلى بهذا الزخرف . أحيانا يتكونْ على الصفحة نوع من التشكيل الصبياني . قذارتي وهزالي أنسياني التفكير في الملذات الجسدية . أحسّ كما لو أني لم أتمتع أبدا بها . تفو، في العالم المُقمَّل، الفائح بالنتانة المقيئة إلى حدّ الاختناق .

في قسم الشهادة الابتدائية يدرسنا مواد اللغة العربية معلم شاب متبجح بنفسه . يُعنى بأناقة لباسه أكثر مما يُعنَى بتدريسنا . يتمشى بين الصفوف مختالا متعجرفاً كما أراه في الشوارع وهو يتبع احدى الفتيات كاشفا عن أسنانه البيضاء . بين حين وآخر يسوي عقدة رباطة عنقه على انعكاس زجاج النافذة اذا كانت مفتوحة واذا لم تكن يفتحها. يحكي لنا النكات أو يطلب من بعضنا أن يحكيها. يضحك لأتفه الأشياء . يقرأ الصحف والكتب في القسم . يطلب منا أن نراجع دروسنا السابقة في صمت حتى لا نشوش عليه استغراقه في قراءتها . أهو جاء ليعلمنا أم جاء ليتعلم ؟ هكذا أفكر في القرد الأمرد الأسمر. يغضب بسرعة، يسبّ من يخطىء في أدنى شيء. انه ابن امه الكبير هذا المعلم . كلنا، في نظره، حمير وهو راكبنا بعلمه وعصاه . يضع دائماً قضيبا على مكتبه . يضرب من يغضبه، إنّ ضرباته تجعل المُعاقب يقفز ويتقوس . قد يرجع الى مكانه وهو يدمع . ان هذا الولد الكبير المعلم يغضب مثل من هرب منه قرده الى السطح كمايقال . يكرهني، يسخر من ضعفي في كل

مواد العربية . في احدى الحصص لم أكن قد حفظت قصيدة صفيّ الدين الحلي التي مطلعها هذان البيتان، إذا لم أخطىء :

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه ★ وانصب فإنّ لذيذ العيش في النّصب

إني رأيت وَقوف الماء يفسده ★ إن سال طاب وإن لم يجر لـم يطب

اقترب مني غاضبا وهوى على كتفي بقضيبه الرفيع ثلاث مرات . في الثالثة مسني رأس القضيب في أذني اليسرى . ظل يحقّر سني المتقدمة، ومستواي الدراسي حتى ختم غضبه القردي بهذه الكلمات :

–حمار ... غبي ... أأنت ستدرس ؟ عد إلى طنجتك مع أولاد السوق بدلا من أن تضيع وقتك هنا وتضيعه لنا معك .

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي يضربني فيها وبعدها اقتصر على السب، بين مرة وأخرى، حتى نسي وجودي . لمست أذني الدامية . استنكار في نظرات رفقائي . تآزروا معي صاغرين . فكرت أن أنهض وأرتمي عليه : أن أتناطح معه كما كنت أفعل في تطوان أو طنجة في المشاجرات حتى ولو انهزمت . أن ...نتعارك حتى يخور أحدنا، أن أحاول عض أذنه الحمارية حتى ابترها وأبصقها في وجهه . لكن سيكون آخريوم لي في المدرسة. سأترك أُذن الحمار لأسنان الحمير . عندما انتهى الدرس ذهبت الى المغاسل ونظفت أذني بالماء من الدم المتخثر . كانت قطرات قد سقطت على كتفي . بدأت أذني تسيل من جديد بعد الغسل .

يدرسنا أيضا نفس المعلم الذي اختبرني أول يوم في الحساب . سريع الغضب مثل الآخر، صارم، ينعتنا بالحمير في حجرة الدرس، وفي قاعة المطعم . يحمل دائماً كتاباً، أو كتابين، أو أكثر، باللغة الأجنبية . سمعت أنه يدرس الانجليزية بالمراسلة، ويعرف الاسبانية، وقليلا من الفرنسية . يدرسنا الحساب والتاريخ والجغرافية . هو أيضاً يضرب بالقضيب على أطراف الأصابع أو

يصفع، لكنه لا يغادر حصته حتى يستدرج المعاقب الى المصالحة معه. لم نكن نحقد عليه مثل الآخر . يساعد بعض التلاميذ المعوزين الوافدين من البادية ببعض النقود والثياب ويزورهم في مساكنهم متفقدا أحوالهم مراقبا فروضهم . أنا لم تشملني رحمته ورعايته خارج المدرسة . لم يكن لي مكان قارٌ أنام فيه . كنت أتبع خطى السكارى، والحشاشين، وطوافي الليل . أجد لي دائماً مكاناً بينهم . لقد كانت لنا نفس الذكريات واللغة، لنا عالمنا ليلاً ونهاراً، في لَعْنَتنا الجميلة. إن السكارى، والحشاشين، وطوافي الليل، يَتَشابهون، ويتآزرون، أينما كانوا، في أيّ زمان ومكان . إنهم يرفضون الدَّخيل عليهم والوسيط، إذا لم يعتنق لَعْنَتَهم .

بعض رموز العالم بدأت أجد لها معاني فيما أقرأه . نجحت في امتحان الالتحاق بالتعليم الثانوي . نقلت من تلميذ في مادة الحساب

قيل لي أن بعضهم نجح بالرشوة أو الوساطة . قلت لنفسي : أنا أيضاً غششت في مادة الحساب . ساعدني المطعميّ السلهامي على شراء تذكرة السفر وعدت إلى طنجة : لعينتي، مهما جفَا كلانا من الآخر .

5

المرواني

جاء المرواني الى مقهى الرقاصة كعادته، لكنه اليوم لا يحمل صينيته الكبيرة المملوءة بالأرغفة الباكستانية ليبيعها في المقاهي الشعبية . هذا الصباح يحمل فقط رغيفا مشطورا مدهونا بالسمن والعسل . يتناول افطاره شاتما هؤلاء الذين يتهمونه، في غيابه، وحضوره، أحيانا، بخيانة وطنه . أنهى فطوره وصاح بصوت غاضب :

– اليوم سأبرهن لهم عمن أنا، أنا عميل الاستعمار كما يقولون عني .

تهامس رواد المقهى عن الجنون الذي بدا لهم في عينيه . يدخن سيجارته باضطراب . وقف فجأة وأخرج خنجرا كبيرا من حزامه تحت عباءته الفضفاضة البيضاء . تبلبل الزبائن وارتعشت ملامحهم ساكنين في أماكنهم، ألقى نظرة دائرية بطيئة على الحاضرين.

عيونهم لا تكاد ترمش . نظراتهم مشلولة .

- اليوم سيعرف أولاد الحرام من هو أنا .

خبأ خنجره وخرج راكضا في اتجاه عقبة الصياغين . في ساحة بينيتو بيريث جالدوس (1) أشهر خنجره وطعن به صَيْرَفِيّاً يهوديا في دكانه، ثم امرأة أجنبية . انطلق في طريق الطواحين شاهرا خنجره الدامي، التقى ببعض المغاربة، لكنه لم يبال بهم . كان يصرخ : " الجهاد في سبيل الله يا أولاد الحرام . لعن الله الكفار والخونة ... " في حومة بنشرقي قصد دكاناً وجده مقفلا . ركل بابه وبصق عليه شاتما صاحبه . استأنف ركضه . في طريق دار الدباغ طعن رجلاً وامرأة أجنبيين . في نهج اسبانيا، قرب محطة القطار، كان هناك شرطي اسباني . قصده المرواني شاهرا خنجره . أطلق الشرطي النار على احدى ساقيه فسقط يتمرغ في دمائه وهو يسبّ الملاعين . وصلت سيارة إسعاف، وجيب الشرطة، وجمهور أخذ يتكاثر بسرعة .

---

(1) روائي إسبانيّ مشهور (1.843 - 1.920) Benito Pérez Galdos

6

عناد الحب القاسي مثل خبز الفقراء

جالس في رحبة قهوة سنترال . الحرارة تُنْعسني . آتية من طريق البحرية . مصبوبة في قميص وسروال أبيضين شفافين لصيقين بجسدها الرشيق . شابة وجميلة . شقراء . في مشيتها غنج . أنفها صغير أفطس قليلا ، شعرها طويل أملس ، شفتها العليا مقوسة. عيناها كبيرتان مسحوبتان . قطة أسيوية . قد تكون لها طباع قطة مشاكسة . اذا كانت واحدة منهن فسيكون معنى لهذه الأشياء التي أدغدغ بها ذهني عنها . أتبعها . عيائي يخفّ . دخلت في طريق كرّولاس أونثي . CURRO Las once في ساحة التقدم دخلت داراً أزالت شكي : انها واحدة منهن .انتظرت حتى تصعد الدرج . استقبلتني صاحبة الدار ببشاشة . انها للاّلغالية . بدأت تشيخ ، لكنها ذات حيوية وأناقة . لا أزهى من دارها : دار السلام . ضحكات ولغو صاخبان في احدى الغرف . أدخلتني إلى غرفة

صغيرة مفروشة بتخت مغربي . رائحة الندّ تفوح. على الحيطان سجادات مزينة برسوم مستوحاة من شخوص ألف ليلة وليلة . طلبت بيرة . جاءتني بها فتاة جميلة سمراء، قصيرة وممتلئة . "انكحوا من السمر القصار، ومن البيض الطوال" . لون ثوبها مزيج من البنفسجي والأبيض . انحنت واضعة القنينة على الطاولة الصغيرة فشفّ في ضوء الشمس العمودي تشكيل فخذيها وبانت الفجوة العمودية يخترقها النورالقوي . شكرتها وانصرفت ناظرة اليّ مبتسمة . أطلت للاّلغالية عند الباب بقامتها الطويلة فانكسر الشعاع وحيتني مشرقة والسيجارة في يدها . ترفل في قفطانها الزاهي اللون. طلبت بيرة أخرى قبل أن أنهي الأولى . سألتها عن ذات السروال والقميص الأبيضين . قالت ان ثمن الدخلة مع واحدة منهم خمسون بسيطة . قلت نعم . جاءتني بالثالثة قبل أن أنهي الثانية . قالت ان التي أريدها مصحوبة . قلت صبراً جميلاً عليّ. قالت هناك اثنتان أجمل . قلت الخيار لها . الرجاء في القوادة غالباً لا يخيب . نادت ربيعة . جاءت الجميلة السمراء . قنينتان أخريان . قالت انها من مكناس . قلت لم أززمدينتها . حملنا شرابنا الى غرفة أخرى فيها فراش . سألتها عن صاحبة السروال والقميص . قالت إن التي أريدها من طنجة . رائحة ربيعة قوية، وحارة، مثل لُطْفها .

في المساء، تسكعت بين خمارات السوق الداخلي . يتحدثون عن جنون المرواني، ومذبحته، وأسرته، وارثة الجنون، وعن الاستعمار الذي يختار عملاءه من بين ضعفاء العقول، والمعتوهين، الذين ينتهون مجرمين . هيّجني السكر الحزين والعناد فعدت الى دار القوادة "شريوطة" . قالت كنزة ما زالت في صحبة الرجال وأنا ان شئتُ عدتُ غداً أو فَعندها أجمل منها . إن التي استعصت أعطيها مائة بسيطة . ستشاورَها. قلت لها مدبرة أعطيها ما شاءت . بانت

في البهو مختالة في خطوها مثل نمرة شبعت من افتراسها . تباهت نظراتها ثم اختفت في كبرياء المعتصمات .حملت إليّ شريوطة بيرتي وقالت :

- لا تُشْقِ نفسك بها و ما لك إلاّ سواها . هي عنيدة وأنا لا أقدر أن أبززلها حقها . هذا زمن النساء في حياة الرجال . عدْ يوماً آخر لعل الله يهديها .

صباح هذا اليوم تاجرت في بيع الساعات الزائفة في الميناء . ربحت ثلاثين دولارا . في المساء التقيت حميد الزيلاشي يخيط أزقة السوق الداخلي : خرج من السجن منذ يومين . رأسه حليق، يَعتَمر " بريه " أسود بالياً من الصوف . شاحب ومتوتر الأعصاب .

-أدخلوني إلى زنزانة كريهة الرائحة يخرج من ثقب مرحاضها الجرذان . قضيت فيها ثلاثة أيام .

- لماذا الزنزانة؟

- لأنني رفضت تنظيف المراحيض متعللا بالمرض. لقد حقد عليّ الحارس لأنه لم يكن عندي ما أعطيه لابن الزانية كما يفعل من لا يريد أن ينظف . كنت قد دخلت الى حان - مقهى - النورماندي في ساحة فرنسا لأشرب كأسا. امتنعوا عن خدمتي فبلت على العتبة. قبضني النادلون وأخذني البوليس وحكموا عليّ بشهر .

بدأ حميد يفكر في العودة الى الدراسة في العرائش، إذا هو لم يعد إلى السجن بسبب زَعارته، ونشل الجيوب . إنه ماهر، ولكنه قد يخطئ أو يتهور .

-لا أريد أن أنهي حياتي بين الملاعين . ان الذين يحكمون داخل السجن أفظع من الذين يحكمون خارجه . حكم الحاكم ولا حكم المحكوم .

رويت له ما حدث لي مع كنزة .

- إنها تريد أن توقعك في فخ حبها . ابتعد عن حب العاهرات .

ان كل واحدة تحاول أن تنتقم من كل الرجال من خلال رجل واحد . كل واحدة منهن تعتقد أن الرجل هو الذي فَشَّل حياتها . كلهن فاشلات في الحب .

- انها شقراء، وسمعت أن مزاج الشقراوات جدّ متقلب .

ضحك بصخب

- من قال لك هذه السخافة ؟ ليس هناك لون امرأة خَيِّر ولون أخرى شرير . لونهن واحد من الداخل ولو اختلفت ألوان جلودهن . أغرق نفسك في الجنس تنْس هموم الحب . ان الحب هم كبير مثل خبز الفقراء .

ذهبنا إلى طريق المسحيين . دخلنا حانة الجايو BAR EL GAL-LO كان هناك اسبانيون وبعض المغاربة. اسبانياتان تشربان وتثرثران مع اسباني ومغربي . شربنا كأسين . أزعجتنا قهقهات المحترفتين فخرجنا. أعطيته مائة بسيطة . سيذهب غدا الى أزيلا ليزور أسرته . قد لا أراه الا في العرائش . ودعته . ذهبت الى حانت خاكوبيتو . كأس من نبيذ لا إينا INA . تملكني جنون العودة إلى دار شريوطة . ربيعة غير مشغولة . تذكرت عريها الجميل الأسمر، وزغب ظهرها الخفيف، ودفء فخذيها الممتلئتين وعرقها القوي . تخيلتني ألبسها وأُلبسها ما شاءت من الألبسة الحريرية حتى كادت أن تختنق ضاحكة في هوس لايكف ثم راحت تتلوى مثل أفعى متحفزة . تتعرى وتتعرى حتى صارت أكثر عرياً من عريها . ان حميد محق . شهوة خبز الأفخاذ ولا زنبورالحب . الحب جنيّ . من يستطيع القبض عليه؟ مائة وخمسون بسيطة لربيعة وخمسون لشريوطة . انه ثمن رائحة الليلة العطرة بكاملها مع ربيعة .

شربنا وذهبنا إلى فندقها : لابلاتا LA PLATA .

اشترينا زجاجة مرتيني، وثلاث ليمونات، وليمونادا -الصودا . غرفتها صغيرة . الليلة صاهدة . جلسنا بثيابنا

الداخلية على حافة الفراش .

-لماذا تلح على مضاجعة كنزة .

- عناد .

-اذن أنت لا تحبها !

- تعجبني .

--إنها صديقتي . سأحدثها غداً عنك وتنام معك دون أن تدفع لها ألف بسيطة كما قلت لشريوطة . ان كنزة أيضا عنيدة، ربما تكون قد أيقظت فيها أشياء تؤلمها .

- لم يعد يهمني أن أنام معها .

شربنا كأسينا . صمتنا في شرود . تناظرنا .

-أهي تحب أحدا ؟

-هي الآن لا تحب أحدا، لكنها تبحث عن حب حقيقي .

- حب حقيقي !

-نعم . حب حقيقي .

- ماذا تقصدين ؟

-نظرت إلي باسمة .

- أنت تمزح .

-أبداً لا .

- كل الناس يعروفون ما هو الحب الحقيقي وأنت لا تعرفه .

- لا أعرفه .

-كفاك من الكذب .

كنا مثل طفلين نحاول أن نحلل سرآ من أسرار العالم .

اشتريت بعض كتب المنفلوطي، وجبران خليل جبران، ومّي زيادة، وسجنت نفسي أقرأها . كنت قد سمعت أن هؤلاء يكتبون عن الحب المثالي، الحب الحقيقي . أخرج الى مطعم " ماريا" القريب من الفندق وأعود حاملا معي زجاجة نبيذ وكتابا عن الحب الحقيقي

أو قريبا منه . وجدت بعض العزاء فيما يقوله المنفلوطي وجبران ومّي، لكنه حب مشروط بالموت أو الحزن الأبدي أو هو الجنون .

التقيت ربيعة في السوق الداخلي . كنزة انتقلت الى فندق ربيعة لتسكنا معا . اقترحت عليّ أن أنضم اليهما في نفس الفندق . ثمنه أرخص من فندقي، ويمكن لي أن أصحب معي من أشاء . الفخ يبدأ. هكذا فكرت . انتقلت إلى الفندق مدفوعا بالعناد، والفضول، والمغامرة . حجزت، في السطح، غرفة صغيرة مواجهة للبحر . تصاحبت مع حارس الفندق الليلي : شاب مدمن على الكيف والخمر ليل نهار . صار كارها للنساء لأن عشيقته شامة خانته مع صديق له . حين يغلبه الكيف والخمر أنوب عنه في الحراسة اذا لم يغلبني الخمر والكيف قبله . أحيانا تصحب كنزة معها زبونا يقضي الليلة كلها معها أو يغادرها بعد وقت . ربيعة تفعل ذلك في فنادق أخرى . لا أدري ما يمنعها في فندقها مع أنها متفاهمة مع علال الحارس أكثر من كنزة المتعجرفة، العصبية . القراءة صارت تخفف عني الإدمان على الخمر والكيف . اشتريت أيضا مجنون ليلى وكليوباتره لأحمد شوقي . وجدتني كنزة ذات مساء أقرأ مسرحية المجنون جالساً وراء صندوق الاستقبال فقالت :

- كفاك من القراءة فإنها تجنن .

كان يتبعها رجل .

تعمل كنزة في مرقص شرقي راقصة مبتدئة، مع ذلك فقد سموها : "الراقصة العفريتة" . في ليلة عادت سكرانة . سائق سيارة الأجرة يسندها . في فمها سيجار . هذه أول مرة أرى فيها امرأة تدخن سيجاراً في حجم زَبَ مُنْتَصب . لباس سهرتها أسود لامع وقلادة بيضاء زائفة تتدلى على صدرها، ووردة حمراء "مركوزة" في شعرها . الليل أخفى للويل كما قال لي ماجن لا يقرب الفسق في النهار . قال لي السائق وهو يغادرها :

- إذا لم تسندها مثلي فانها ستسقط .

بياض وجهها وعنقها وذراعيها أجمل في ثوبها الأسود . تركتها واقفة تترنح وأخذت مفتاح غرفتها من حاملة المفاتيح .

- أنا امرأة عظيمة . أنت لا تعرفني بعد .

علال الحارس ميت في نومه . نزعت لها السيجار حتى لا تحرقني في وجهي وأنا أسندها . رائحة الخمر، والتبغ، والعطر القوي، تمتزج في شميمي . لم أكن قد شربت غير كؤوس في تلك الليلة . الثملة أغلى من جيبي . أحاطت ذراعها عنقي وصعدنا الدرج هاذية بعظمتها ومشقّتي أعظم معها . رميت السيجار . يبدو أنها نسيته . تتوقف فوق درجة للتكلم عن القنصل الإسباني الذي يرتاد مرقصها من أجلها ويموت حباً فيها . أحيانا تريد أن تنام على إحدى الدرجات فأرفعها.

-ليس هنا .

خلعت لها حذاءها المذهب ومددتها على فراشها بكامل زينتها . تعيش لياليها بجلالها الكامل . جلستُ على حافة السرير عند قدميها وأشعلتُ سيجارة . أتأمل غيبوبتها وتنفسها الواهن . إن لها الآن جمال امرأة ميتة مشتهاة في زمن بابلي أو اغريقي . لم يعد فيها ما يغري . فقدت كل كبرياء صحوها، وغزلها، وتباهيها . لقد تحررت من كل خداع، من كل زيف بشري . انها الآن لنفسها كلية شاءت أم لم تشأ .

دخلت غرفتي وشربت كوب ماء ممزوج بعصير الليمون . دخنت وفكرت في العلاقات البشرية القذرة . حلمت بصف طويل من الرجال عراة يتناوبون على مضاجعة كنزة وهي تقول لهم : " تعالوا الي كلكم . زمني هو زمن كل النساء . " حلمت وحلمت حتى أيقظني حلم الأحلام .

لم أعد أرى حميد منذ افترقنا . مرت أيام والتجارة، مع بحارة

البواخر، كاسدة . صرت أقود تارة السياح وتارة الجنود البحارة إلى المواخير والحانات . ربيعة وكنزة تضاجعان الرجال . أنا أقرأ وأنسخ، أحيانا، ما أقرأه حتى يرسخ الأسلوب في ذهني، والكتابة السليمة دون أن أعرف قواعدها النحوية كما نصحني حسن .

اكتوبر يقترب. لم أوفر كثيرا . لقد استنزفتني الحانات والمواخير لأنسى صدمة كنزة . ملأت حقيبة كبيرة بالملابس التي بادلت بها بحارة البواخر التجارية أشياء من الصناعة التقليدية المغربية . بعضها اشتريته من سوق المستعملات . سأبيعها للتلاميذ في العرائش خلال أيام إفلاسي . قبل سفري بيوم دعوت ربيعة للسباحة والغداء في أحد مطاعم الشاطئ . سبحنا وجرينا ولعبنا. بصقت على كنزة في خيالي وأنا ألاعب ربيعة في الماء . نطفو ونغوص، نفرج ساقينا بالتناوب ويمر كلانا من فجوة الفخذين . كل مرة نُباعدُ المسافة حتى يفوز أقوانا . تذكرت ما قاله الاسباني لرفيقه في حانة خينرال :

CADA AMOR SE OLVIDA CON OTRO AMOR

RECOR DAR EL PRIMER AMOR ES AMAR SEGUNDA VEZ

كل حب ينسى بحب آخر .

أن تتذكر الحب الأول هو أن تحب مرة ثانية .

لكنني لم أستطع أن أستبدل حب كنزة بحب ربيعة . ان الحب لعنةوكنزة لعنتي .

في مطعم بويرتا ديل الصول حكت لي ربيعة دامعة العينين عن موت أمها . أبوها تزوج بعد موت أمها في أقل من شهر . لم تكن زوجة أبيها تحبها وتكره أن تربي أخاها الذي أخرجوه من بطن أمها بالقيصرية . في ليلة ذهبت زوجة أبيها إلى عرس . غلب النوم ربيعة في فراشهما . عاد أبوها سكران ونام معها عن غير قصد . حكم عليها أن تهجر مكناس أو يقتلها .

قلت لها :

- قد يحدث هذا عن قصد أو غير قصـــــد . قـــد يحدث أكثر من هذا .

كَفَّ دمعها واستراحت عيناها .

7

فطيمـــة

جلسنا في قهوة سنترال . أخرج من تحت جلبابه كتابا ومده لي :

– هذا عمل عظيم . أحسن ما يمكن لنا أن نقرأه .

كانت رواية البؤساء لفكتور هوجو . نقل جزءاً منها إلى العربية حافظ ابراهيم بلغة القواميس القديمة . طلبنا قهوتين بالحليب . أخذت أقرأ له . معظم الكلمات لم أكن أفهمها . ألفاظ غريبة صعب عليّ نطقها . المختار يعرف معنى كل الكلمات تقريبا . في مشرب المقهى كانت هناك امرأة تشرب مع جماعة من الاسبانيين . تضحك كثيرا ، يغازلها ثلاثة . بين لحظة وأخرى تنظر الي . ابتسامتها مشرقة. بادلتها ابتسامتها الوديعة . ماذا يخامرها ؟ فكرت أن للنساء نزواتهن . وضع لنا النادل القهوتين وقال :

– القهوتان على حساب السيدة فطيمة .

قد لا تكون نزوة . ربما هو احسان بنا . لا شك أنها تعرف

المختار . شكرتها بنظرة باسمة. قبل أن أسأله قال :

- تعيش على هواها مع الاسبانيين. تتحاشى العشرة مع المغاربة، لكنها امرأة طيبة .

المختار يعرف أسماء الأشخاص من أصواتهم أو مجرد لمسهم، اذا كان يعرفهم شخصيا .

في المعهد لم تكن الدراسة قد بدأت بجد . القسم الداخلي لم يفتح بعد . كان علينا أن نتدبر مأوانا، وأكلنا، نحن الوافدين على المدينة من البوادي أو من المدن الأخرى . في زنقة القائد أحمد كان هناك هُري ملكاً للأوقاف . عندي حوالي ألف بسيطة . وصل حميد وقبلوه في مدرسة المعتمد بن عباد . استطاع أن يتسلم مفتاح الهري. في الليل نشعل أخشابا في احدى حجرتيه التي نجلس وننام فيها . نستضيء بالشموع. نشتري زجاجة روم نيجريتا لنحتمي بها من برد الليل القارس، ونجتر الحنين إلى طنجة . علقنا لوحا أسود قديما على الجدار . ننجز عليه العمليات الحسابية ونتبارى في كل المواد الدراسية . تعرف حميد على فتاة عاشت فترة في طنجة سحقها فيها صعاليك الليل . صارت تشاركنا وحدتنا حين لا تكون مدعوة لتقضي الليلة كلها مع زبون سخيّ . تطبخ لنا، وتشرب معنا، وتساهم في النفقات . فتاة لم تخلق أبدا للدعارة . قليلة الكلام حضورها حميم . تنام بيننا على مضجع واطئ صنعناه من الكرتون، وأمزاق الثياب البالية، والجرائد . لم يكن يسوؤها تناوبنا على التدفء بجسدها الحارّ، لكن الجنس رغبتها فيه أقلّ من رغبتنا . نوع من التطهر يجعلها سلبية معنا . ربما مع كل من ينام معها . ربما لا تريد منا غير صداقتنا ! لكننا لم نكن نعرف صداقة الرجل للمرأة دون جنس . انها أنثى ونحن ذكران نفترس أنوثتها . انتحابها، أحيانا، وهي بيننا، يحزنني . حميد لا يبالي بها . لم نكن نقدر أن نراها تنام بعيدا عنا . مات أبوها وهي طفلة . رعتها عمتها . لم يكن لنا،

حميد وأنا، أي مصدر لكسب بعض النقود . بسيطاتي تنفد . حميد جاء مفلسا من طنجة . ذات صباح قال لي :

-تَزيّن اليوم بأحسن ما عندك من ثياب .

انه يوم أحد .

- لماذا ؟

- ستعرف فيما بعد .

عندي سترة وبنطال لا ألْبَسُهما الا في أيام العطل دون مطر . اخترتُ قميصا أبيض، وربطة عنق زاهية الألوان .

- لا تنس أن تحمل محفظتك الجلدية وقلمك الذي لا تكتب به دروسك .

- لكن لماذا كل هذا البهرج ؟

- عندي مشروع جيد .

- ما هو ؟

- هناك كثير من العاطلين الوافدين على المدينة من البادية يبحثون عن الشغل .

- وبعد ؟

-سأصطاد اثنين أو ثلاثة . سأقول لهم انك صديق الكاتب الخاص لباشا المدينة . ستكتب رسالة لكل واحد منهم تقول فيها : " ان حامل الرسالة في حاجة الى شغل فالرجاء أن تشغلوه " .

-هكذا ببساطة .

- نعم، هذا ما ينبغي لك أن تكتبه .

- وإذا قبضونا .

- من ؟

- الشرطة أو الضحايا .

- سننكر . ألا تعرف كيف تنكر ؟ أين أيامك في طنجة ؟

- وخط يدي، كيف أنكره ؟

- اكتب بخط غير الخط الذي تعودت أن تكتب به . لن يمتحن الخبراء خطك في مثل هذه القضية .
- أنت المسؤول عن العواقب .
- أنا الملعون، لكن ابلع لسانك .

ذهب بحثاً عن الضحايا . قصدت مقهى " النجمة " في كامل زينتي . كنت أقرأ عرائس المروج لجبران خليل جبران عندما عاد مصحوبا ببدويين . صافحاني باحترام بالغ . احسست بحرج . رجوتهما أن يجلسا .

سحنتهما جدّ بائسة . حميد جلس ليشرح لي طلبهما . لم أتعود على مثل هذا الغش . موقف كان أقوى مما مارسته من غش . أرشف من قهوتي السوداء . طلبوا براد شاي أخضر . حميد لا تهمه الوسيلة التي يتدبر بها الانسان عيشه . في مثل هذه الظروف الضحايا لا يمكن أن يكونوا إلا من طبقتنا .

كل شيء يجوز لنا من أجل انهاء دراستنا. عليهم هم أيضا أن يسرقوا غيرهم كما نسرقهم نحن .

هكذا قال بعد انصراف الضحيتين . اتفق معهما على مائتي بسيطة لكتابة الرسالتين . كتبت في كل واحدة : " أنا الموقع اسفله ... مواطن مغربي ... أبحث عن أيّ عمل . الرجاء أن تشغلوني . والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه . "

لا يعرفان التوقيع كتابة . قطرت قليلا من مداد قلمي على ورقة وجعلتهما يوقعان بابهاميهما . كان يوم أحد آخر عندما كنا نتجول في طريق ريال REAL . لم يكن معنا ما نُقهي به . معنا بضع سجائر نتناوب على تدخين الواحدة منها . تخلف حميد ورائي يتفرج على واجهة متجر وأنا أنتظره متفرجا على واجهة أخرى . سمعت زعيقه، أحدهما قابض على حميد والآخر رآني فقصدني يرعد ويصرخ . جريت بكل قواي . دخلت في زقاق . هناك باب ثانوي لمسجد

الجامع الكبير . خطر لي الاحتماء في المَقْدِس . دخلت راكضا بحذائي . في المتوضأ انزلقت ولم أسقط. التفتُّ ورائي . ولد القحبة يخلع حذاءه . لا مكان للاحتماء هنا . لم أخلع حذائي . صلاة الظهر. أقفز على ظهور المصلين راكضا بينهم . تبلبلوا . خرجت من الباب الرئيسي . وجدتني في ساحة سوق الكبيبات . صحت في أبناء الزانيات :

–عودوا الى الصلاة . لم يحدث شيء .

لا آذان لهم . اللعنة على الأرانب البشرية . يركضون ورائي . تبلبل باعة سوق الكبيبات. تكاثر مطاردي . اذا جرى أرنب جرت أرانب . قصدت " عين شقة " . توقفت عند السور المطل على البحر. من بعيد، رأيت بقية مطاردي يتوقفون مبهورين، بلهاء . ألهث مستندا على السور ناظراً اليهم . في عيونهم شرّ وتَوَجُّس . سأتركهم لا يعرفون . من جديد مشوا في اتجاهي ببطء ثم راحوا، شيئا فشيئا، يركضون . استأنفت سباقي . رأيتهم يتوقفون ويتكلمون ثم يرجعون وهم يتقاربون . توقفت ساعلاً لاهثا . استندت الى السور . نسيم البحر يخفف من تعبي .

في المساء، ذهبت إلى الهري . وجدت حميد مع سعيدة . عينه اليسرى متورمة، وفي منخره قطن . نظرت إلى سعيدة مثل ممرضة من أخوات الاحسان تُعنى في دير بجريح خاض حربا في القرون الوسطى . تناظرنا، أنا وحميد، لحظة ثم انفجرنا ضاحكين في صخب هيستيري . قال :

– أنت محظوظ . لقد أفلت من مطاردك . انه أقوى وأخبث من زميله . عاد، ولد الزنا، وتضارب معي ورفيقه يحاول أن يخلصه مني . تدخل بعض المارة وأنقذوني من الذهاب معهما الى مركز الشرطة ،لو قبضك لَمَرَّغَك في الأرض .

دقات خفيفة على الباب . فكرت : دقات انسان غريب

خجول . فتح حميد . ناداني . فطيمة الضاحكة . ماذا تريد ؟ تسائلنا باسمين . اضطربت ملامح وجهها . زينتها بسيطة . لم تبالغ في تجميل وجهها كما تعودت أن أراها في مقهى سنترال . قدمت لها حميد ورجوتها أن تدخل .

-ليس اليوم . شكرا . أريد أن أتكلم معك .

استأذنت حميد وصحبتها . نظر الينا لا مباليا .

-أدعوك للعشاء معي في بيتي . لم تجيء إلى مقهى سنترال منذ أيام . ترقبتك هناك وسألت عنك النادل .

– في هذه الأيام، أعود من المعهد مباشرة إلى الهُرْي لأراجع دروسي .

تسكن في طريق ريال . بيت صغير : حجرة، ومطبخ، ومرْحضة . الأثاث نظيف ومتواضع . على الجدران صور في أُطُر زُجَاجية حواشيها ملصقة بشريط أحمر . رائحة توابل ولحم . تحَلَّب فمي . تضاعف جوعي . تركتْ الحجرة مُضاءة عندما جاءتني الى الهُري . زجاجة فرموتْ وشطائر ليمون . لا شك أن حميد يلعن الآن النساء .

– هذا ما عندي اليوم .

تناخبنا . شربَت ثم وَضعت كأسها كأنما تذكرت شيئا .

– أنا راجعة .

تأملت الصُّور على الجدران : فردية وجماعية مع اسبانيين . هناك صورة رجل وامرأة شيخين . أبواها ؟ صورة لها مع طفلة .

-هذه بنتي سلوى .

طفلة خجول . باسمة .

-بوسيه .

ألصقت فمها الدافىء على خدي . بوسة خفيفة على رأسها . أكره الملاعين الذي يبوسون الأطفال في الفم أو قريبا منه . يمصون

أفواه العاهرات، وقد يلعقون الفروج . لا رجل تقي ولا فَرْج نقيّ .
هذا ما يقوله حميد .

-عمرها سبع سنوات . تدرس في التحضيري .

ابتسمت لها وأجلستها إلي جانبي .

-هذا السيد هو الذي سيعلمك عندما تعودين من المدرسة .

حملت إليّ دفاترها . تصفحتها .

-نتائجها جيدة .

-أريد أن تتعلم حتى تصير طبيبة أو أستاذة . أليس كذلك يا سلوى ؟ لا أريد لها أن تصبح مثلي . أنا لم أدرس غير ثلاث سنوات في معهد الراهبات الاسبانيات . تعلمت الخياطة، والطرز، أكثر مما تعلمت الكتابة والقراءة .

لأول مرة أسمع عن طفلة مغربية اسمها سلوى . تبتسم منكمشة على نفسها . أثناء العشاء كانت تمزق قطعة لحم تضعها تارة في فم سلوى وأخرى تمدها لي . ترّن كأسانا، فَرحتُها هوَّستها . أخذت سلواها، بعد العشاء، عند الجارة التي تربيها .

-لماذا لا تتركينها تنام معك ؟

- أعود متأخرة في الليل، ولا أستيقظ باكرا . هي تفيق في السابعة لتذهب الى المدرسة في الثامنة .

سألتها عن مسقط رأسها .

-ولدت في العرائش، لكن أبوي من " اثنين سيدي اليماني. "
أمي ماتت وأبي عاد الى قريتنا . إنه اليوم متزوج ويفلح أرضنا .

تمتلىء بالنشوة والإلفة . لا يبدو عليها الآن أي تُحبب و تَغَنُّج كما تكون في مقهى سنترال . محتشمة في حركاتها ورقيقة في صوتها . عندما نصمت ينتابها شرود حزين، لكنه حلو فأتركها لنفسها وأتَلَهى برؤية الصور على الحيطان . عندما يشرق حضورها أشاركها مرحها .

قابلت المختار الحداد في الشارع . وحيدا يسير . أوقفته . تلمسني ثم انتقلت يده الى ذراعي منزلقة حتى قبض على يدي :

-شكري . أنا أبحث عنك . سألت عنك في مقهى سنترال . هل نذهب الى هناك ونقرأ؟

ربما يتعرف عليّ أيضا بالشم . يحمل قصة "ليلى المريضة في العراق" لزكي مبارك .

-لا أملك ثمن أيّ مشروب وعندي سيجارتان فقط .

تأبط ذراعي وذهبنا الى مأوى المعهد الديني ليستدين من تلميذ بدوي يقيم هناك . في بهو المبنى اتجه الى اليسار وأخذ يتلمس الأبواب . عند الباب الثالث توقف وطرَق. لم يجبه أحد . الباب غير مقفل بالمفتاح . فتحه ودخل . خرج ملتفتاً يميناً ويساراً ليرى بسمعه كعادته . يحمل شيئا تحت جلبابه . يمسكه بيده من خلال فتحة جيب الجلباب .

-ماذا هناك ؟

-اسكتْ . انه موقد البترول . سنبيعه . أتمنى ألا نلتقي به قبل أن نخرج من هنا .

- من ؟

-صاحب الموقد . أراجع معه دروسه العربية .

تركته ينتظرني قرب أحد أقواس الكبيبات ورحت عند المطعمي السلهامي . وجدته ماسكاً فَرُّوجا من جناحيه .

-أيها الفروج العزيز، لقد حان أجلك المحتوم . ليس على يـــــدي وانما على يد الذين يطلبون لحمك . اني مضطر الى أن أنفــــذ فيك هذا الحكم وأنا شديد الأسف والحزن عليـــك . لن تحلم بعد اليوم بالحبوب، والقفز على الإناث المغرورات اللواتي يقضين وقتهن كله في البحث عما يأكلنه . أما أنت فرأســـك دائما شامخ . انك تنظر الى السماء أكثر مما تنظر الى الأرض . وداعاً

أيهـــا العزيز اللطيف الجميل .

ثم ذبحه بالموسى ورماه ليتمرغ وينتفض . انتصب لحظة جاحظ العينين وقفز لينهار وهو ينتفض . من عادة السلهامي ان يخطب على كل فروج يذبحه . لم يكن قط يذبح الدجاجات ، الأنثى لا تصلح الا لتلد ، ان لحمها غير لذيذ ومترهل ، لأنها تستهلك نفسها في ولادة البيض والقلق على ما تلد . هكذا يقول . يذبح كل فروج بالموسى بدل السكين حتى لا يتعذب . ان الفروج فيه روح وليس كمنجة كما يقول . بعت له موقد البترول بثلاثين بسيطة . سألني عمّا إذا كان مسروقا ، أقسمت له أنه لصديق تلميذ في حاجة الى نقود لشراء دفاتر .

اقتسمنا المبلغ . قبل أن نذهب الى السنترال طلب مني أن نمر على الدرب الذي تسكن فيه معشوقته "البتول" . قرب منزلها توقف وتأوه ثم عدنا . فكرت : لقد شمّ دربها . كان المختار يُحيي تقاليد الحب العذري عن صدق . وسيموت بعملية جراحية في قلبه الضعيف العاشق عام 74 .

-أهي أيضا تحبك ؟

-لا أدري .

-أعتقد أنها تعرف .

- لكن لا يهمني أن تعرف أولا تعرف .

-تتكلمان ؟

- ليس على انفراد. عندما تكون مع رفيقاتها في المعهد أو مع إحداهن نتكلم قليلاً ونتسالم .

جلسنا في مقهى السنترال وأخذت أقرأ له ليلى المريضة في العراق وهو يتأوه ويشرح لي ما لا أعرفه من الكلمات .

في المعهد رأيت اسمي ضمن قائمة الممنوحين في القسم الداخلي . كان يوم سبت . يوم الاثنين سيفتح . فرحت وهنأتني

فطيمة بثلاث قبلات على خدي . انه يوم الأحد. وجدتها تتجمل لتبدأ يومها الاحتفالي في الحانات .

-إياك أن تنقطع عن زيارتي وتعليم سلواي . انني أعوّل عليك .

-سلواك هي سلواي .

دست لي عشرين بسيطة في يدي مشرقة الوجه . لم أرفض . لقد عودتني . إن لها حرفة وأنا ينتظرني العام الدراسي كله من الإفلاس المادي قبل أن تأتي عطلة الصيف وعودتي الى طنجة. أعطيت درساً لسلوى واصطحبتها في جولة . اشتريت لها شوكولاته بما أعطته لها أمها . تجولنا ولعبنا في الحديقة العمومية ثم أعدتها الى مربيتها للاّ فاطنة .

وجدت حميد يقرأ وسعيدة تطبخ طاجينا من السمك . فوق الصندوق زجاجة نبيذ، وكأسان مُنصفان .

لا شك أن سعيدة هي التي تسوقت . حميد مفلس .

في القسم الداخلي لم أشعر أني أعيش في امتياز، السرير نظيف، الأكل أجود من مطعم المدرسة الابتدائية، لكن طاعة قانون الداخلية الصارم يولّد في نفسي توتراً شبيهاً بحيوان في قفص . كنت في غرفة أكثرية المقيمين فيها من أبناء البورجوازيين الذين جاءوا من مدن شمالية . فكرت أن أطلب من الادارة أن تنقلني الى غرفة أخرى أغلبيتهم فيها بدويون، فقراء مثلي، لكن من أكون أنا حتى أطالب؟ قد يطلبون مني تبريراً ويحدث ما لا أتوقعه من سوء .الأسِرّة كلها مزدوجة . فراشي فوق، التحتي يحتله رفيق من القصر الكبير يعتزل عشرة الرفاق . لم يكن يهتم إلاّ بالرياضيات . المواد الأخرى يكتب بعضها ولا يراجعها . هندامه مُهْمَل . يحلق وجهه مرة في الأسبوع. يحمل دائماً دفتراً يملؤه بتمارين الجبر والهندسة . يكتب على أرض الغرفة، وأبواب المراحيض، وأينما كتب له الطباشير عملياته . على الجدران الجيرية يكتب بالقلم الرصاص . يحتفظ

دائماً في جيبه بشمعة يشعلها عدة مرات في الليل ليحلّ احدى العمليات الجبرية على الأرض . نومه متقطع . يبول عدة مرات في الليل . أول من يَنْدَسّ في الفراش وآخر من يغادره. الإفطار في مطعم المعهد غالباً ما يفوته، لكنه من أسرة موسرة كما سمعت . توقظني كوابيسه، يحلم متكلما . جمله قصيرة ومبهمة . أحيانا، يجيب من يكلمه بهز كتفيه أو ببسمة لا يفترّ لها فمه ثم يبتعد . قلت لنفسي : على الأقل، هذا الرفيق لا يشبه أحداً في الغرفة وإن يكن من طبقتهم . يقضون وقتاً في التأنق، وبرنزة وجوههم بالحلاقة كل يوم. منهم من يحلق مرتين اذا كان له موعد في المساء مع فتاة. في أيام العطل يتزاحمون على مرآة المغاسل ليحلقوا وجوههم . أنا لا أنتظر نوبتي . أملأ سطلاً بالماء وأنحني عليه فأرى انعكاس وجهي غائما فأحلقه . سألني أحدهم :

-كيف تعلمت حلاقة وجهك هكذا دون أن تجرحه؟

- في أسفل بطني. لقد جرحته مرات عديدة حتى لا أجرح وجهي .

يتفقدنا المدير في المطعم وفي غرف النوم . درس في القاهرة . نعتبره مرجعنا في كل ما يستعصي علينا في الحضارة العربية . لا يتذمر قطّ ممن يسأله . كنت أكثر سائليه . مرة التقيته في الشارع ورجوته أن يشرح لي بيت أبي العلاء المعري :

خـُلِقَ الناسُ للبقاء فَضَلَّت * أمَّـــة يحسبـــونهـــم للنَّفَاد

شرحَ البيت، وتكلم عن حياة الشاعر، وعصره، ومذهبه في الوجود . أحيانا، كنت أراه في المعهد أو خارجه يتمتم وحده فأقول لنفسي : ربما هو الآن يتلو سوراً من القرآن أو شعراً كلاسيكيا .

لم أنسَ مقهى السي عبد الله . حميد نادراً ما يرتاده . يفضل الجلوس مع السلهامي في المطعم ليأكل ما تَيَسَّر، ويدخن الكيف معه، أو مع مونفرير في دكان حلاقته . يشرب معه النبيذ في المساء

أو في النهار أيام العطل المدرسية . في معظم الأحيان لا يستقبل مونفرير سوى الوافدين على المدينة وقلّما يرجعون إليه بسبب ادمانه . لقد أصبحت يداه ترعشان في الوجوه . لم يعد يأتي عنده، من المدينة، الا السكارى مثله .

يسافر معظم الرفاق في أيام الاجازات . صباح يوم الأحد هذا بارد وغائم . سأشرب شايا ثم أذهب لأعطي الدرس لسلوى . سبعة أو ثمانية رواد . اثنان يلعبان الورق . قال السي عبد الله لرجل ضخم مشيرا اليّ :

-ها هو واحدهم جا .

أجلساني الى طاولتهما. الى جانب الرجل الأدرد (عديم الأسنان) بنديــــر. قال السي عبد الله للرجل البائس وهو يقوم الى الوجاق :

- هذا الطالب هو الذي سيحلّ لك مشكلتك.

سألني كمن لا يصدق :

-أحقا أنت طالب ؟

-نعم، ما هي مشكلتك ؟

-كل شيء يعرفه السي عبد الله.

أحضر لي الشاي وجلس.

- هذا الرجل المسكين يريد أن يتزوج مسكينة مثله. العدول طلبوا منه ما ليس عنده من المال ليكتبوا له عقد النكاح. هو حلايقي (1) وهي تبيع البخور. اكتب لهما عقد الزواج ونحن شهود والله هو أكبر شاهد على هذا العقد المبارك. مسكين تزوج مسكينة.

لم أفكر في أية شريعة تمنع ما سأقوم به. ان الفقر فوق القانون. قلت :

- ولماذا لا، على بركة الله !

(1) الراوي الذي يروي للناس حكايات تاريخية إرضائية أو حكايات خرافية تراجيدية أو ملهاتية.

خرج الحلايقي وعاد يصطحب امرأة مجلببة ومُلَثّمة. عينها اليسرى حولاء. تحمل قفة مليئة بالمتاع. أدخلنا السي عبد الله الى حجرة. جلسنا على الحصير الذي هو كلُّ أثاثها. أحضر لي ورقتين بيضاوين. تركني أكتب العقد وخرج. سجلت أيضا متاع كل منهما. سلمت للرجل نسخة وأمَّنتُ الأخرى عند السي عبد الله. جاءنا بالشاي مرة أخرى ودعا بالبركة. رفعنا، أنا والسي عبد الله، أيدينا وشرعت أقرأ دعاء الخير والسي عبد الله يردد آمين. ثم أخذت أتمتم بصوت خفيض قصيدة مهيار الديلمي التي أحفظها عن ظهر قلب.

أعْجبَت بي بين نادي قومها * أمُّ "سعد" فَمَضت تَسأل بي

مدَّ لي الرجل أوراقا ملفوَفة رفضتها قائلاً :

– أبدا لا. انه عمل خير.

ألَحَّ :

–خذها، إنه قدر قليل من أجل الفتوح.

أضاف السي عبد الله :

–لا بأس، خذ منه هذه البركة.

انصرف الزوجان فقال لي السي عبد الله :

– هذا أعظم عمل خير تقوم به في حياتك. سيكون لك مستقبل عظيم ان شاء الله.

– آمين.

ذهبت عند فطيمة. استقبلتني بابتسامة باهتة. عيناها راشحتان، شاحبة، يدها رخوة وباردة. قبل أن أسألها عما يحزنها بادرتني :

–سلوى مريضة. محمومة. لا تأكل.

–مرض الأطفال سريعاً ما يزول.

سلوى نائمة على سرير أمها. فوق طاولة صغيرة، قرب السرير، كأس عصير برتقال منصفة.

– غداً سآخذها عند طبيب أعرفه.

تبدو كما لو أنها لم تفرح قط في حياتها. تَجَمَّع فيها كُلُّ حزنها. في مثل هذه الساعة من كل أحد أجدها تتجمل أو في كامل زينتها. سيغيب عنها اليوم عالم نشوتها، وجمالها، ولطفها. مرض سلواها أقوى من كل لذاذاتها.

خيَّرتني :

-شاي أو قهوة ؟

رفضت بلطف. وعدتها أن أعود في المساء. في الشارع أحسست بكآبتها تنعكس على نفسي. وجدتني في الحديقة العمومية. الجوّ غائم. لا أحد هناك. استعدتُ سلوى بين الأطفال الاسبانيين يلعبون وأمهاتهم جالسات يحبكن الصوف ويثرثرن وينهين أطفالهن عن مخاطر بعض أنواع اللعب وأم سلوى ترنّ كأسها مع الكؤوس في السنترال. بدأت ترشّ قطرات كبيرة والريح تهب. خرجت راكضا الى الهري.

عشرات من أكياس الإسمنت.

- ما هذا ؟

- سيبنون المسجد الذي دشنه محمد الخامس في القصبة. سيعطيني المقاول الاسباني خمسا وعشرين بسيطة كل يوم مقابل استعمال الهري حتى يتم بناء المسجد. انها ثروة نزلت من السماء. ان الله قد يرمي، أحيانا، امثالنا في بحر هائج، لكنه لا يغرقنا.

- وسعيدة ؟

- ذهبت الى السوق.

يراجع درسا في تاريخ الفينقيين في المغرب. قال :

- أتعتقد أن الفنيقيين هم أول من علّم المغاربة القراءة والكتابة ؟

- لقد جاء قبلهم عبدَة الصخور (الدرو ديون) لكن اللغة البربرية أصلها سام كما يقال.

جلست. فوق الصندوق - الطاولة نصف زجاجة نبيذ. ملأ

قدحين صغيرين. - لقد قبل مدير المعهد تسجيلي مستمعا. إذا سقطت فسأعود إلى طنجة لأصير أكبر قواد أو لص أو مجرم. كل شيء مباح اذا لم أنجح في دراستي. أنت أيضا لست أفضل مني. ستعود لتعمل في أحد المقاهي أو في الميناء..

انه على حق. أنا ليست لي أصابعه السحرية التي ينشل بها الجيوب.

شربنا ما تبقى من القدحين.

-فطيمة حزينة لأن ابنتها مريضة.

- القحاب أكثر حرصاً وقَلَقا على أولادهن من النساء المتزوجات.

دخلت سعيدة حاملة قفة الحاجيات تصحبها فتاة. قدمتها :

-عائشة.

أجلسها حميد بحيوية على صندوق. انه لطيف في حضورهن وشتّامهن في غيابهنّ. أشعلت سعيدة سيجارة وانهمكت في الركن -المطبخ لإعداد الغَداء. تناظرنا خفية أنا وحميد حول الوافدة. أخذت مني سيجارة. أشعلها حميد ثم سألها :

-من أين أنت ؟

- من القصر الكبير.

-أنا من أزيلا . نحن جيران اذن .

أعطيته عشر بسيطات لشراء زجاجة نبيذ .

-ابق معنا للغداء.

-يسجلون الغيابات. اذا كثرت فسأفقد منحتي في القسم الداخلي. سأعود بعد الغداء.

قابلت المختار الحداد متمشياً وحيداً بين أقواس الكبيبات. كعادتي معه، اعترضت طريقه . هذه المرة نطق اسمي دون أن يلمسني . أصار أيضا يتعرف على رائحة جلدي ؟ يتأبط السمفونية الريفية لأندري

جيد . ترجمها الى العربية حسن صادق عام 38 . قال :

-سمعت أن هذه القصة هي من أروع ما كتب هذا الكاتب الفرنسي . سنقرأها ، إذا شئت ، هذا المساء.

وافقت دون توقيت. طلب مني أن أصحبه الى درب محبوبته البتول. ثلاث تلميذات مقبلات. ينظرن إلينا ضاحكات. تكَهرَب جسد المختار وشَدَّت يده على ذراعي بقوة وقال :

-هاهي مقبلة مع صاحباتها.

-إنّهنّ ثلاث.

- أقصرهن وأجملهن . وجنتاها مورّدتان.

- صحيح.

-تصرف كأن شيئا لا يحدث . لا تبالغ في النظر اليهن.

عندما مررن قدامنا تهامسن . قال :

-احداهن سأبدأ غدا اعطاءها دروسا في العربية.

-أين ؟

- في منزلها.

- من هي بينهن ؟

- السمراء

ودعني قرب المعهد ليقود نفسه في الطرقات التي يعرفها جيداً. في الرابعة ذهبت عند فطيمة. فارقتها كآبتها. سلوى جالسة على الفراش. خدّاها موردان . جلست أمها جنبها وباسمتها. لاطفت ذقنها وشعرها. نظرت سلوى اليّ كأنها تراني لأول مرة. ربما افتقدتني. نظراتها شاردة. ملأت كأسين من المرتيني ومدَّت لي كأسي. عبد الوهاب يغني في الراديو : " جفنه عَـلَّـمَ الغزل. " لا مشابهة بينهما مع ذلك فقد تذكرت سلافة من خلال فطيمة . هذه لم أرها أبداً غاضبة ، لكن يبدو لي أن أدنى حادث يقع لها يُفقدها مرحها.

وجدته وحيداً. راديو قديم من نوع رسيا .R.C.I.A ينبعث منه

الفلامنكو. مصباح كهربائي معلق الى الحائط يضيء الحجرة في وضوح. الراديو هدية من مونفرير الحلاق. لم يستعمله منذ سنوات. الكهرباء سرقها حميد من الزقاق. استعمالها لا يمكن إلا في الليل. ينبغي فكّ السلك وسحبه الى داخل الهري. في الصباح الباكر أو في الليل قبل النوم.

–والسلم لفك السلك؟

–أشار الى الصناديق :

– هذه سُلمي.

– وسعيدة وعائشة ؟

– خرجتا لتقحبا. ستأتيان بزاد المساء. لم تجيء بَعْدَ الغداء.

– نعست قليلاً ثم ذهبت عند فطيمة. ابنتها تحسنت.

– اجلس .

–سأعود الى القسم الداخلي. يسجلون الغيابات كما قلت لك.

– طُز في الغيابات ! عائشة ستبيت معنا. إنها لك وحدك.

عادت عائشةَ وسعيدة حاملتين بضائع وزجاجتين من النبيذ. طز في الغيابات اذن. كسب العيش ينتظرنا دائما في طنجة. صرت أعرف القراءة والكتابة. لن أحتاج الى من يقرأ لي رسالة أو كتابا. كان هوسي الكبير هو أن أجد من يقرأ لي مجلة عن حياة الممثلين. تذكرت العيش مع فوزية ونعيمة صحبة حميد، في فندق القصبة، بمزيج من الحسرة والسعادة. وضعت سعيدة وعائشة حمولتهما. خطف حميد زجاجة وفتحها. الى جانبه دفتر مفتوح.

– ماذا تراجع ؟

– درسا في تاريخ الأشوريين والبابليين.

– انها مجرد معلومات نحشو بها أذهاننا. لن تسعفنا في شيء.

– لا أوافقك . كل جديد يُلَقَّحُ بالقديم . التاريخ هو التاريخ ولو كان ظالماً.صبّ في القدحين الوحيدين. شرب هو وسعيدة من كأس،

وشربت أنا وعائشة من الأخرى. دقّ على الباب. قام من على حافة الفراش حافي القدمين وفتح. كهل رثّ الثياب. ساعده حميد على نقل أربعة أكياس إلى عربة صغيرة. فكرت : انه كسب جديد، لكن عواقبه سيئة اذا هم ضبطونا نسرق الأكياس ونبيعها. شَغَّل حميد الراديو. صوت أسمهان : متع شبابك في ڤيينا ... "

قلت :

-اذا اكتشفوا سرقة الكهرباء فإننا حتماً سنطرد من هنا.

-حينئذ سنبحث عن مكان آخر. اننا لا نسكن في قصر. ليس لدينا ما نخسره.

انه دائما مستعد أن يبدأ حياة جديدة. لا يتعلق بشيء. في نظره، كل شيء هشٌّ وقابل للسقوط والانكسار. أنهيت قراءة السيمفونية الريفية مع المختار في جلستين. كنا في مقهى سنترال. قال بصوت متنهد :

-لست أدري لماذا يقسو القدر على ناس طيبين ويتحالف مع الأشرار. ماذا فعلت جرترود المسكينة حتى تلقى ذلك المصير ؟

-أعتقد أن "الراعي" هو الذي جنى عليها عندما أحبها. لو تركها لابنه جاك لما حاولت انتحارها الفاشل الذي قادها الى اليأس التام والموت

-هذه احدى مساوئ بعض رجال الدين. انهم يدنسون، أحيانا، ما يطهرون، لكن على الأقل ماتت جرترود انسانة ولم تمت مثل بهيمة.

صار حميد يدرس معنا في المعهد. لم يكن يواظب على الدروس. وضعه تلميذاً مُستمعاً يشجّعه على التغيب. قدم في المعهد وقدم في طنجة. إذا فشلت اليوم يده في الكتابة فلن تفشل غداً في نشل جيوب الناس. أكياس الإسمنت، التي يبيعها في الليل، أغرقته في السكر والتسكع. لا يقسم معي مُناصفة. يعطيني ما يشاء. انه سيّد

الهُري والعطاء. يأتي بفتيات أخريات الى الهري. ينام معهن أمام سعيدة. اشترى لنفسه ملابس جلدية يباهي بها الأساتذة، ومفتشي التعليم.

يختلف الى الخمارات كل يوم. اشترى لسعيدة وعائشة أثواباً جميلة لتغريا بها الذين يدفعون جيدا. رائحة العطور الاسبانية التي تفوح منهما ذكيّة. لقد صارتا من الدرجة الأولى في العهر كما يقول.

كنا نجتاز امتحانات الفترة الثانية عندما وصلتني رسالة بالاسبانية من مستشفى مرض السل في تطوان. خطها جميل يشبه خط الراهبات. "ان كاتبة هذه الرسالة تسلم عليك وتلح على أن تعود أمك في أقرب وقت ممكن."

في آخر يوم من الامتحانات ذهبت عند فطيمة وأخبرتها بسفري. دست لي، بالحاح، في جيب سترتي، مائة بسيطة. "كل شيء سيفوت. ذات يوم ستصبح أستاذا أو محاميا وتنسى أنك كنت فقيرا". سلوى لم تكن حاضرة.

دعاني حميد للعشاء والمبيت في الهري. وجدت سعيدة وعائشة في أجمل زينتهما. عطرهما يُدَوِّخ. اشترى حميد أثاثاً مُستعملاً، وزيَّن الجدران بصور الممثلات المنزوعة من المجلات، وصنع مكتبة صغيرة من الآجر، والألواح العارضة. سألته:

-كيف تسير علاقتك مع المُقاول الاسباني؟

- رجل رائع. أجمل ما فيه هو أنه لا يلاحظ كثيرا. انه خبز الله كما يقال. حتى الآن لم يفقد ثقته فيّ، ولا شيء يثير الشبهات.

- انك تبالغ في تزيين نفسك وتأثيث الهري.

- ألا تعتقد أنه أيضا يسرق من أموال بناء المسجد؟

- ربما.

-ابلع لسانك اذن .

سعيدة وعائشة بدتا أكثر جمالاً ممَّا تعودت أن أراهما. حميد كان أكثر حميمية . ربما أتاني هذا الشعور من كوني سأغيب عنهما حوالي عشرة أيام.

8

الملح لا يزهر أبدا

أخبرني بائع الخضر، أعرفه في الطرانكات، أن التفرسيتي صار يسكن في برج الأفعى. ست سنوات دون أن نلتقي. وجدته في مقهى "السانية" يلعب الورق . ذهبنا إلى منزله. في الطريق بغايا واقفات على عتبات بيوتهن أو يطللن ويختفين. كل حركاتهن فيها دعوة للدخول معهن. رجال وفتيان يغازلونهن. يسأل أحدهم عن ثمن الدخلة فيدخل أو يغادر الى أخريات.

قدمني الى عشيقته الزهرة: شابة، قصيرة، مكتنزة وجميلة. وضعت حقيبتي الحقيرة على الأرض . أوصاها أن تنتظرنا للغداء وخرجنا.

دخلنا حانة ريبرتيتو. طلبنا نبيذ خيريث الأبيض. على الجدران رؤوس ثيران محنطة. الحانة ما زالت تحتفظ ببعض مجدها. تلك أول مرة أدخلها. عرفتها وأنا طفل أخطف ما يتبقى في صحون طاولات

رحبتها. أشرب ما في الكؤوس من ليمونادا أو خمر وأجمع أعقاب السجائر الشقراء. الحانة الآن يرتادها موظفون، وتجار صغار مغاربة وما بقي في المدينة من عساكر اسبانيين. التفرسيتي يشتغل في الصيف بائع مثلجات مع اسباني. في الفصول الأخرى يتاجر في الخضار والفواكه بالجملة كما كنا نفعل من قبل. سألته عن عشيقته القديمة "لطيفة".

-أووه، تزوجت ولها الآن ثلاثة أطفال. عاشرت كثيرات بعدها، لكن كلهن يردن أن يتزوجن.

- ألم تفكر في أن تتزوج بإحداهن ؟

- أبدا.

- لماذا ؟

-الرجل لا ينبغي له أن يتزوج قحبة.

-لماذا؟

- لا يمكن أن يكون لك أطفال مع قحبة.

- ما هو العيب ؟

-سيعيشون معقدين عندما يعرفون أن أمهم كانت قحبة.

انه يحلم أن يتزوج امرأة لم تفسق حتى لا يكون أولاده معقدين، وحتى لا تخونه، أما القحبة فأكيد أنها ستخونه. لقد اضطربته أسئلتي فقال :

- لقد صرت محظوظا .

- في أيّ شيء ؟

- إنك تعلمت . صرت تفكر جيدا في معرفة الأشياء .

- أنت أيضا يمكن لك أن تتعلم في المدارس الليلية . لقد بدأوا يفتحون منها الكثير في المدن .

- فاتني الحظ .

لم أرد أن أناقشه طويلاً في أمّيته حتى لا أحزنه، أما أنا

فينتظرني الجنون اذا لم أتعلم. شربنا كأسينا الأخيرين ورجعنا عنده للغداء. في المساء، صحبني الى حيّنا سيدي طلحة. دقّ على باب كوخ من القصدير. خرجت ارحيمو. قال لها :

- ها هو أخوك محمد.

ابتسمت باضطراب ودمعت عيناها. وضعت حقيبتي على الأرض وتعانقنا. شممت فيها رائحة أسرتي كلها : من مات منها ومن هو حيّ. سالت دموعها. أنا سالت في داخلي. بانَ طفل. لا بدّ أنه أخي عبد العزيز. قدماه حافيتان، ثيابه رثّة، نحيف وشاحب. امتزجت دموعها بابتسامتها المسروقة من حزنها وقالت :

-ها هو أخوك عبد العزيز.

رفعته قليلا ومدته لي لتتباوس. كان في عامه الأول عندما عدت من وهران عام 51 . انه اليوم في السابعة من عمره. لم يتعلم بعد كيف يبتسم أو يضحك. شبه خائف. رجاني التفرسيتي أن أزوره في داره وانصرف. في احدى الحجرتين وَضَعت بين ذراعيّ طفلةً وقالت :

-وهذه أختك مليكة. عمرها عامان. لم تسمع بها.

- لا.

- أمُّنا تحسنت. لم تعد تبصق الدم. أبونا يذهب الى سبتة ليتاجر في العسل.

- العسل ؟

-نعم، يصنعه من السكر وفضلات الشهد ويبيعه للإسبان. يبقى هناك يومين أو ثلاثة . محتمل أن يعود هذا المساء.

عندما عدت، مساء، وجدت جارنا عبد الحميد جالساً على مقعد قدام باب كوخه. كان ينتظرني. أدخلني. رأيت، في ركن، حقيبتي مَعوجة.

- أبوك أحمق. نحن الريفيين قساة على بعضنا البعض أكثر مما

نحن قساة على غيرنا. لقد أراد احراقها. اختك ارحيمو هي التي استغاثت بي فأدركته يبعجها قبل أن يحرقها.

احدى صورتي الكبيرتين في الحقيبة مكسور زجاجها ومُنشطر لوحها الملصقة عليه. الأهَمّ هي شهادتي الابتدائية التي لم يلحقها ضرر. ألَحَّ عليّ جارنا أن أبيت عنده. تأبطت حقيبتي وودعته شاكراً إياه وعيناي دامعتان من الغضب.

في طريق عودتي الى دار التفرسيتي دخلت حانة في بورديل السانية وشربت كأسين من كونياك "تري". دخنت باضطراب مفكرا في الذي لم أعرف بعد كيف أتخلص من وجوده في حياتي.

وجدت الزهرة تعد العشاء. استقبلتني بمرح بالغ. كتمت توتري. التفرسيتي خرج ليشري الخبز. خامرتني فكرة شراء سكين والعوْدة اليه وطعنه أو تدبير وسيلة لاخلاء اخوتي من الكوخ واحراقه وهو نائم.

عادالتفرسيتي. آزرني فقلت له :

-أمي حكت لي أنه لطم أباه، وركله، وسبّه أمامها في الريف. لا بد أن تكون شجرة عائلته من المجرمين، والملاعين والمجانين.

قالت الزهرة :

-الله يسترنا.

قال التفرسيتي :

-سيندم.

-لن يهمني ندمه.

فتح زجاجة نبيذ وقال :

-لننس الليلة هذه المصيبة.

أخذ الزهرة قرب الباب وتهامسا. لبست جلابتها مسرورة وخرجت. سألته عن عزيزة وابنها عبد السلام.

-ماتت في العام الماضي مصدورة. قتلها الخمر والكيف. عبد

السلام محكوم بعامين منذ ثلاثة أشهر. أدين بعدة سرقات.

-والسبتاوي ؟

-هرب الى سبتة. سرقا معا متجر اليهودي في سوق الطرانكات. لقد أفرغا، في الليل، صندوق ماله.

دخلت الزهرة تصحبها فتاة رشيقة. استقبلها التفرسيتي :

-أهلاً مينة. غبت عنا كثيرا.

صافحتها وهي باسمة مرحة. في الصباح جاءتني الزهرة بالفطور. رأيت فوق الصينية مائة وخمسين بسيطة.

-تركها لك محمد.

-ومينة ؟

-تعمل عند أسرة اسبانية. تسكن معها. لا أحد لها هنا في تطوان. انها من سامسا. (1)

تركت خمسين بسيطة لتعطيها لها. رفضت وهي تمدها لي :

-أنت في حاجة إليها أكثر منها. انها صديقتنا.

ألححت فأخذتها. ليست محترفة إذن. لدى خروجي أكدت عليّ :

-سننتظرك للغداء. حاول أن تجيء حوالي الواحدة.

(1) قرية قرب تطوان

9

زيـــارة

أربعة أسرّة. مريضة واحدة طريحة الفراش قرب سرير أمي. فتاة تحمل جمالها في مرضها. جمال المسلولات : وجنتاها موردتان. وضعت على الطاولة الصغيرة طرد الفواكه وبست رأس أمي ثم جلست على مصطبة صغيرة مستديرة بيضاء، قرب سريرها.

-هذه هي الآنسة "الغالية" التي كتبت لك الرسالة لكي تجيء.

شكرت الآنسة الغالية وتباسمنا. احمرت وجنتاها وسعلت عدة مرات بخجل. لا بد أن تكون قد درست عند أخوات الاحسان حتى تكتب بذلك الخط الجميل. أخبرت أمي عن زيارتي لأخوتي. لم أذكر لها ما حدث لي (معه). ذكرت لي أنهم لا يسمحون هنا للأطفال أن يعودوا ذويهم. لم تكن تعودها سوى ارحيمو التي كبرت. يعودها، أحيانا، جارنا عبد الحميد صحبة زوجته، أما هو فلم يَعُدْها قط.

سعلت الغالية عدة مرات بحدة. بدا عليها الانفعال. تناولت

ملعقة من قنينة صغيرة. البرد يغزو الحجرة من النافذة المفتوحة. قالت أمي :

- لا بد أن تبقى مفتوحة حتى ولو كان الثلج يتساقط ليتجدد الهواء. نتغلب على البرد هنا بالأغطية اللازمة.

ذكرت لها نجاحي في الشهادة الابتدائية. انفعلت فَرَحاً ثم دمعت عيناها وسعلت. سعلت أيضا الغالية. لا بد أني ذكرتها بدراستها.

- هل رأيت أباك ؟

- نعم. فرح بنجاحي في الدراسة.

كنت أعرف أن أختي ارحيمو ستقص عليها كل ما فعله معي، لكن سيكون يوم آخر. دخلت امرأة وجلست على حافة سريرها، قالت لها أمي :

- هذا هو محمدي.

ثم سعلت. تباسمت مع المرأة وحييتها. الألم يتجسد هنا في كل الابتسامات المُغْتَصبة، والكلمات المقتضبة، والحركات التي سريعا ما تفتر. قلت لأمي :

- البرد لا بد أن يكون قاتلا هنا في الليل.

- يغلقون شباك اللوح. الهواء ينبغي أن يبقى دائما نقيا.

وعدتها أن أزورها قبل أن أعود الى العرائش.

تغذيت مع الزهرة وحيدا. قالت :

-يحدث له كثيرا ألاّ يأتي للغداء أو العشاء. قد يكون الآن يلعب الورق ويسكر في نفس الوقت. غالبا ما يخسر لأن اللاعبين معه يعرفون ضعفه في السكر. لا يعرف كيف ينسحب في الوقت المناسب اذا ربح.

أبول باستمرار. قلمي يؤلمني كلما بلت أو التَوى. قليل من الصديد يسيل منه. يؤلمني أكثر عند الانتصاب. الحشفة تحمرّ وبالغة الحساسية مع عانتي وسروالي. انها عاهرة اذن في مسوح العمل.

10
عسل الجمال البشري

وصلت إلى طنجة مساء . حجزت غرفة في بنسيون لابلاتا .
LA PLATA بين بولة وأخرى بثر من القيح في ثقب قضيبي. حُمّى خفيفة ودوار . تكاسلت في الخروج للعشاء. بت أقرأ سيرانو دو برجراك ، وأدخن باضطراب ، وأبول بألم. مسكين دوبرجراك !ان زبك تطاول حتى وصل أنفك.

في الصباح أزداد ألمي عند البول ، وخوفني القيح الذي يسيل منه باستمرار. الحشفة صارت أكثر احمرارا وحساسية. وصفت للصيدلي أعراضي فأعطاني شفائي في ثلاثة أيام. أول مرة أتقيح ، وأول مرة أُحْقن.

ربيعة جمعوها في حملة تفتيش عن البغايا غير الخاضعات للكشف الطبي الرسمي. حكموا عليها بشهر. كنزة تسكن فندق تاهيتي في طريق المسيحيين. بارجة أمريكية في ميناء طنجة. بحارتها

في الحانات، والشوارع، وبيوت الدعارة الاسبانية، والفرنسية، واليهودية. قدت ثلاثة منهم (واحد فيليبيني) من السوق الداخلي الى ماخور مادام سيمون الجميلة. من يعرف أن يقول : هللو، كمان ديسوي يستطيع أن يقود طابورا منهم.

في قاعة الاستقبال فرنسيات، واسبانيات، وايطالية واحدة. تنانيرهن تكشف عن أفخاذهن الرشيقة. اذا جلست احداهن على مقعد يظهر لون تُبَّانها (السليب). كواعب أحذيتهن العالية تُبرز مؤخراتهن باغراء. عسل الجمال البشري ينتظر من يتلذذ بمذاقه. وقفنا الى مشرب القاعة الصغير. طلبنا البيرة. تَمَيَّست احداهن نحونا ثم اثنتان. قالت لي مدام سيمون :

-سأعطيك ثلاثين عن كل مائة بسيطة كما هي العادة مع المرشدين. اشرب بيرتك وعد بعد أن يخرجوا أو فَعُد غدا.

أعطاني كل واحد منهم دولارين. لم يكن ممكنا مراقبة ما يستهلكون، لكن كل صاحبة ماخور تدفع نسبة معقولة حتى للذين ليسوا رسميين لتكسب ثقتهم.

قبيل منتصف الليل خرجت من خمارة الميناء. الفليبيني سكران يقتاده شرطيان عسكريان بحاران. يسير بينهما حافي القدمين. لباسه البحري الأبيض لم يعد جميلا. لا بد أنهم أفرغوا له جيوبه وتعاركا. كان أرزن من رفيقيه عندما قدتهم عند مدام سيمون. أعطتني بنت الزانية مائتي بسيطة وقالت :

-لم يستهلكوا كثيرا.

ثمن الدخلة مع احداهن عندها مائة بسيطة. قلمي لم يعد يسيل. قد لا تقبلني أية واحدة. عند ماري كارمن أفضل. دخولي مع احداهن عندها شبه أكيد. لقد رأيت من هم في مستواي يدخلون. خمسون بسيطة للدخلة.

فتياتها اسبانيات. انهن أقل ترفعا مع المغاربة من فتيات مدام

سيمون. أعرف كريستوبالينا. كنت أبيع لها السجائر المهربة في السنة الماضية. وقفت الى المشربة الصغيرة. ماري كارمن تتحدث مع زبون. طلبت منها نبيذ خيريث الأبيض. كريستوبالينا جالسة. تدخن وتتصفح مجلة مصورة. دعوتها الى كأس. ابتسمت بمرح وانتصبت أمامي نافخة تنهيدة خفيفة. تناولَت سانزانو، رنّت كأسانا. أشعلت لها سيجارة وقالت:

-لم أعد أراك في السوق الداخلي. ألم تعد تبيع السجائر؟

- انني أدرس الآن في العرائش.

-هذا أحسن لك.

حملنا كأسين آخرين ملآوين ودخلنا غرفتها. وضعت حبة بنفسجية قاتمة في طست. حللتها بأصبعها في الماء الدافئ واغتسلت. أعطتني صابونة معطرة لأفعل مثلها. صبت ماء الكولونيا على قطعتين من القطن. أعطتني احداهما ومسحنا جسمينا من الأمام. جالسين على حافة الفراش عاريين رشفنا من كأسينا ومن فمينا ودخنا وتكلمنا قليلا عن البؤس الذي بدأ يغزو المدينة. ولدت في طنجة. فيما بعد سأعرف أن أمها أيضا احترفت نفس مهنتها، وأختها أيضا مارستها فترة قبل أن تتزوج بشاب مغربي مهَرِّب. تشابكنا فتصاعدت رائحة ابطينا القوية ممزوجة بالعطر. صدرها ملآن ووجهي صغير في مقلتيها.

11

البعد الحلو

قبل أن أدق على الباب قالت لي الطفلة الجارة، قبالة الهري، لاعبة القفز على المربعات المخططة على الأرض بالطباشير الأبيض مع رفيقتها :

-صديقك طردوه من الهري.

ثم استمرت في لعبَتها وهي تقول بالاسبانية ورفيقتها تجيبها :

- PISO ? - أدوسَ؟

- NO لا

- PISO ?

- NO

بعد أن قطعت شوط المربعات سألتها :

- طردوه، كيف ذلك ؟

- جاء اثنان من البوليس فأخذاه هو والفتاة السوداء وصاحبتها.

حجزت غرفة في فندق مالقة وخرجت أتفقد الشوارع. الخامسة مساء. وجدت المختار حزيناً في منزله. رحبت بي والدته. قدمت لي الشاي، وخبزا أسود، وعسلا وسمنا. بعد لحظة أبدى المختار رغبة ملحة في خروجنا. شيء ما يحدث. حزنه هذه المرة أطغى مما تعودت أن أراه فيه. في مقهى سنترال قال :

- البتول خطبها استاذ.

-النساء يفضلن الزواج على الحب

-ما فائدة زواج بدون حب ؟

-انها مشيئة النساء.

- اللعنة اذن على الحب.

-اللعنة أيضا على الزواج، لأن أوله نعم وآخره لا.

أخبرتني مربية سلوى أن فطيمة سافرت الى اسبانيا لتعمل هناك. سلوى جاء جدها وأخذها معه لتقضي عطلتها في البادية. فكرت : لا بد أن فطيمة ذهبت لتعمل في حانة أو مرقص. حميد حبسوه يومين في مخفر الشرطة ثم سُرِّح وذهب الى أصيلة. سعيدة وعائشة سافرتا الى مدينة أخرى. أحسست بوحشة قاسية. ان العالم الصغير الذي كونته خارج المعهد قد تزلزل. التفاحة قُضِمَت، والبرتقالة انشطرت، ورحيق التوت سال على الشفتين، وبُعْدٌ حلو بدأ يُكَوِّنُ الحنين.

12

الجمال المستعاد

عندما نجحت في مباراة الدخول الى مدرسة المعلمين أحسست كأني ولدت من جديد. اعتقدت أني بنيت جدارا منيعا بيني وبين الاحتقار الاجتماعي، والجهل، والبؤس. يا للغباء! ان النحس كان أقوى من فرحتي. أبي لم يستقبل نجاحي الا بقدر ما سأعطيه له من راتبي الشهري. بدأ يساوم أكلي، ومبيتي في الكوخ القصديري، المتفرقة فيه الفئران، قبل أن أقبض حوالتي الأولى من منحة التدريب في مدرسة المعلمين. انه يعبد المال أكثر مما يعبد الله، لكنه لا يعمل شيئا ليكسبه انما ينتظر الآخرين ان يكسبوه له. استيقظ كل ما تَجَمَّع في الماضي من كراهيتي له الراقدة. لقد عـــاد الإرهاب بيننا. لا أعرف سبب تصفية حسابه معي. انه يلاحقني فـــي الحضور والغياب. يخيل لي دائما أن له وجه مجرم، وجه مـــن خرج حديثا من السجن عانى فيه الأشغال الشاقة وعاقبة العصيـــان . الى

مـــتى سأظل أكرس بغضي له ؟

انها عطلة صيف عام ستين. رفقائي القدماء، في تطوان، باعَدَ الزمن بيننا. لم يبق من بعضهم الآ الاسم. قد نتعرف وقد لا نتعرف على بعضنا البعض اذا ما تراءينا. لم يبق منهم سوى التفرسيتي. تجارته مزدهرة.يكاد يحتكر عربات المثلجات الثابتة والمتجولة وثلاثة متاجر أخرى. نادراً ما ألتقيه ولا أبحث عنه. لقد رضعنا من نفس ثدي البؤس. ربما يريد أن ينسلخ تماماً عن جلده. انه غارق اليوم في الفجور، والعلاقات مع التجار، وأصحاب السلطة المتباهين بمناصبهم حديثا. ما زلنا نشرب أنخاب الاستقلال. مرة أخذني معه الى مبغى ڤيلا روسا VILLA ROSA في طريق مرتيل. لم أكن أتصور تبديره ذاك .يريق زجاجات الشمبانيا على أقدام البغايا الاسبانيات. صرخات ابتهاج وهتافات : عاشت امك يا محمد !

شربت ليلا ثي وحدي، على حسابه، حتى مطلع الصباح. لم أنتبه لاختفائه. ماشياً عدت الى المدينة. قلت لنفسي، حتى لا أكدر ما تبقى من نشوة السهرة : انه السكر. لا عليه ولا عليّ. أنا أيضا ثَمل، وبحثاً عن سيجارة في جيبي وجدت أوراقاً منكمشة. بضع مآت من البسيطات. لا شك دسّها لي في جيبي دون أن أشعر أو أعطانيها ونسيت : ثُغرَةٌ سوداء.

أقبع، في أحد مقاهي الفدان، لأدخن الكيف مع الزبائن مجانا. ألعب أيضا الورق بدون رهان. أمي غالبا ما تعطيني ثمن علبة سجائر وكأس شاي. أحيانا يبقى المبلغ عندما يدفع عني زبون يستلطف حديثي معه. أتردد على المكتبة الانجليزية. أقرأحتى تقفل. عرضت مرة خدمتي كمرشد سياحي على زوجين انجليزيين كهلين فرافقتهما صحبتي. كنت أعرف ما يكفي من الكلمات الانجليزية لإرشادهما. خريطة المدينة القديمة ما زالت ماثلة في ذاكرتي. أخذا لي صوراً مع كليهما وأعطياني مائة بسيطة. كفاني المبلغ أياما. "انه جاهل مثلي.

صعلوك. كيف درس؟ لا بد أنهم أخطأوا في انجاحه." هكذا يقول عني أبي للجيران، ولرفاقه معطوبي حرب فرانكو في ساحة الفدان، والمتبطلين أينما كانوا. ان شراسته معي لا تنتهي. قد تلاحقني حتى بعد موته. اذا احتجت أمي يضربها ويلعنها كعادته القديمة معها ومعنا.

كان بعضهم يوافقه على ما يقول، لأن له أولادا يتغذون بالرذيلة فلماذا لا أكون أنا واحدا منهم ونحن كلنا في الوحل! لكن هناك استثناءات. أوقفني كهل في الشارع :

–هل أنت ابن حدو علال الشكري ؟

– نعم.

– هل صحيح ستصبح مدرسا؟

– نعم.

– أعانك الله. الناس يتمنون أن يكون لهم ابن مثلك وأبوك يَسْتَجْهِلُك، ويستهزئ بك. ان أباك أحمق .

– أعرف ذلك. لقد ولد ليحقد على الجميع. لا يحب حتى نفسه.

– الله يسترنا.

أستعيد الحنين الى ملاعب طفولتي في متاهات الدروب، والأحياء، والضواحي : أيام الزّعارة والفتوة، حومة تهجم على حومة (حيّ)، سرقة بساتين الفواكه، في ضفة الوادي عرايا نتبارى في الاستمناء : ها أنا قذفت الأول، وأنا بعده... زرت حيّ"عين الخباز" ، ومسكننا القديم في غرسة بنيناس. بالحجارة والهراوات كنا نتضارب. احتفالنا بغيث الربيع وشمسه والسنونو . نرقص ونصيح . ديك لا أراه يصيح من مكان قريب . حزام فاطمة الزهراء (قوس قزح)، نركب الحمير، نتعلق بمؤخرات الشاحنات وهي تقلع . آثار حريق السياج ما زالت بقاياها في الأوتاد الخشبية القائمة والطائحة . شجرة التين ما زالت مخضرّة، شامخة . الأعشاب المتسلقة تشعبت

فيها، متشابكة، فغطت بعضاً من جمالها . الجمال المستعاد دائما أجمل . الانبهار لا يكف في جميع الأعمار .

أكتب بعض الفصول، من هذه السيرة الذاتية، عام تسعين . في صيف السنة الماضية زارني الصديق المستشرق الياباني نوتاهارا، صحبة زوجته شوكو، في طنجة . كان يترجم الخبز الحافي الى اليابانية . أنجز ثلاثين صفحة وتوقف .

" فكرت أنه اذا عاينت الأماكن التي تجري فيها أحداث الكتاب فستكون الترجمة أسهل، وأدق، وأوضح ... " هكذا قال . بدأنا من تطوان لنعود الى طنجة . الصهريج كان أول ما شاهدنا . أخذ له صوراً عديدة من جميع جوانبه . عندما انتهى قال مبتسما :

- في كتابك تصف هذا الصهريج، وما حوله، بكثير من الجمال، مع أنه ليس كذلك، ولا يدل على أنه كان جميلا .

قلت له بنفس الملاطفة :

-هذه هي مهمة الفن : أن نُجَمِّلَ الحياة حتى في أقبح صورها . إن هذا الصهريج انطبع في ذهن طفولتي جميلا فلا بدّ لي من أن أستعيده بنفس الانطباع حتى ولو كان بركة من الوحل . ثم انني كنت بعيداً عنه زمنيا .

الظهيرة صاهدة . كنت واقفا على حافة الصهريج أتأمل البيت الذي سكناه في أوائل الأربعينات . بيت البؤس الجميل والخلافات اليومية بين أبوي . انه زاه اليوم بطلائه الأبيض، وبابه الجديد . عندما سكناه كان طلاؤه مكشوطا، كالح اللون، غير متماسك، أعيد ترقيعه عدة مرات بألواح مختلفة أقدم منه . خرجت امرأة بدأت تشيخ . صدرها ضخم، متهدل، لكن وجهها صبوح . وجهٌ قَرَوِيّ . بانت خلفها شابة حولها طفلان صغيران حافيان .

-كنا نسكن هنا من قبل .

- ابن من أنت ؟

- ابن ميمونة .

-سكنا بعدكم هنا . أعرف أمك . لم أرها من زمان . أين تسكنون اليوم ؟

-في سيدي طلحة : باريوسان أنطونيو BARIO SAN ANTONIO

-كيف حالها المسكينة ؟

-لا بأس .

- سأزورها إن شاء الله . بلغ لها سلامي .

-مبَلَّغ .

لم يكن عندي ما أعطيه للطفلين من نقود صغيرة، ولا ما أضيفه للمرأة . اعتذرت شاكرا وانسحبت.مشيت في طريق النخيل مستعيدا ذكرياتي بمزيج من الفرح والحزن عن هذا الحيّ . معهد البيلار ما زال شامخا . لم أكن أعرف ما أفلعه بوقتي الفائض بعد القراءة . لو كنت في طنجة لما أحسست بهذا الفراغ الممل . هناك أستطيع أن أوكّـد من أكثر الأيام كآبة وعوزاً بعض المتع . العزلة هناك حرة لها مذاق التوت البري، وهنا مفروضة ولها مذاق الحنظل. تجولت حول المكان الذي كان فيه كباريه "لابيركولا" : الطانجو وكارلوس غاردل، كونشا بكير، الفلامينكو، لاس كوبلاس (أغان شعبية)، والرقص الغجري . منزل الإيطالية الشابة التي كنت أنتقيَ من قمامتها قدام بابها أعقاب سجائرها المصبوغة بأحمر الشفاه القاني.

أدخنها بلذة جنسية . فاجأتني يوما أنبش زبلها بحثاً عن الأعقاب فلم تعد ترميها . مررت على رياض العشاق . لم يكن عندي ثمن شرب شاي في مقهى المغارة . الهادي الجويني يغني : تحت الياسمينة في الليل . تجارة أمي تكسد في أواسط الشهر . لا يمكن لها، أحيانا، أن تعطي لي شيئا . نسيم معطر يلطف المزاج وسط هذا الاخضرار الزاهي الذي يختال فيه العشاق المبتدئون . لم تعد في الحوض سوى سمكات صغيرة ملونة . الكحوليون الذين يحتمون

هنا بالليل اصطادوا الأسماك كلها بالقفة وأكلوها لُماظَة (كميّة، طاپا) مشوية . هكذا قيل . البطّ اختفى تماما من الحديقة . كانَ هناك قرد يشاكسه الأطفال في قفصه، ومصور يعرض على العشاق، ببشاشة، أن يلتقط لهم صورا . العشق المغربي، المبهور ببطولة الحرية، بدأ يخرج من المخابئ، ووراء الشبابيك الى الشوارع، ودور السينما، وتحت الأشجار، في أزياء أوروبية، ورباطات العنق .

تناسق الألوان غير منسجم، والخطو بالحذاء ذي الكعب العالي متعثر . تيه ودلال ساذجان . عمر العشق لم يتحضر بعد . أتردد على الترانكات، والسوق الفوقي، والغرسة الكبيرة، والملاَّح (حي اليهود) أكثر من مرة في اليوم . الحركة والعمل اليدوي وضجيج الباعة والصناع، في هذه الأحياء، يخفف من توتر عطالتي وسأمي، لكن المفزع هو لو أنني أعود يوما الى احتراف أحد هذه الأعمال . يكفيني ما عانيته فيها من مهانة وأنا صبيٌّ مُتَعَلِّم .

كنا ننام، إخوتي وأنا، في حجرة، وفي الأخرى أبواي . لم نكن نتكلم، ولكي أتحاشى رؤيته أجيء في حوالي منتصف الليل . عندما يسمعني داخلا يبدأ همهماته اللاعنة . غالبا ما أكون أنا موضوعها . أكيد أن أمي تكون نائمة . لا أسمع أيّ حوار بينهما، لكنه يخاطبها كأنها تسمعه . قد تكون يَقْظى . وعندما يتعب يشتمها، وما ولدته من خنازير ثم ينام وهو يدمدم . كلانا عنيد في ضَلاله : هو لا يرضى أن أكون ابنه، ولا أنا أرضى أن يكون أبي . يتعاظَم تناحسنا كل يوم . ينقصنا ولو زخرف الخيال . يقينا أنه لم يحلم أبدا بمحبة أحد حتى نفسه، وكذلك الحيوانات، والأشياء، اذا لم تكن نافعة له .

بداية شتمبر . أتمنى أن يمر هذا الصيف العفن بسرعة لأسقط في أحضان الخريف، ثم الشتاء، حيث يكون للدفء عمق أحلام اليقظة عن المستعاد الجميل ... ! نادرا ما أعود الى كوخ اللعنات والنحس

اليومي في الأصيل مثل اليوم . جائع ومتعب . أخي عبد العزيز يبيع البزر، والحلوى لأطفال الحيّ فوق صندوق يتخيله دكانا مثل بقال . ان عقلية التاجر ولدت معه . يتعمد أن يعد أمامنا نقوده الصغيرة عدة مرات . يزهو بما يربح ويتحدى أختينا أن تكسبا شيئا مثله . لو أنه يستطيع لتحدّى حتى أبانا العاطل . وجدت حبيبة، مصغية في تأمل، تحكي معها أمي وأختي ارحيمو . أختي مليكة غافية على حجر أمي ملامسة رأسها . كان هذا التكاشف الحميم استمرارا لصداقة أمي مع أم حبيبة . أم حبيبة هي أيضا عانت كثيرا من قسوة زوجها الفاسق، لكنها كانت تقاومه حتى هزمها فزوج وحيدته حبيبة كهلاً تاجراً في الماشية (صديق له) وهي لم تتعد السابعة عشرة . طلّقها بعد سنة وأشهر لأنها لم تنجب له . أبوها وعمتها شرسان معها ولا أحد تحتمي بهً . أدخلوها الى مستشفى الأمراض العقلية لأنها تكسر أشياء المنزل، وتمزق ثيابها وأي ثوب تجده أمامها . في المستشفى ترقص بهوس صارخة حتى يغمى عليها أو يحقنوها . بعد أشهر خرجت لتعيش حياتها العادية. في عطلة صيف تصاحبت مع شاب في شاطئ مرتيل يصطاف مع أسرته . تزوجها في تطوان وذهبت لتعيش معه في الرباط . كان يعمل في مرأب . أنجبا أربعة أطفال، لكنه كان يقسو عليها بالضرب حتى الادماء فهجرته تاركة له الأطفال . طلقها فذهبت الى سبتة حاملة معها جنون صدمتها من جديد. في سبتة أيضا كانت ترقص مهووسة وتعربد سكرانة في الأحياء الشعبية مغازلة الرجال، ساخرة من النساء . كانوا يسمونها الحمقاء الجميلة . لم يكن لها مأوى . تنام حيثما يستضيفها متشرد في أحد أكواخ البرينسيبي . أحيانا تصنع من الزهور إكليلا تضعه على رأسها ساحبة خلفها أربعة صفائح تقعقع معقودة كل واحدة منها على حدة في حبل واحد . الصفائح الأربع ترمز بها الى أولادها الذين تركتهم في الرباط مع زوجها الهمجي

كما تقول . عندما تهدأ لفترة تروق لكل من يعرفها ومن لا يعرفها فيجددون لها ملابسها ويطعمونها .

تفاقمت عربداتها فرحّلوها إلى تطوان لتدخل مستشفى الأمراض العصابية لكي تفجر طقوس رقصها حتى يغمى عليها و تحقن كالعادة . خرجت لتعيش حياة رصينة ناسية كل شيء . كانت تتدبر أمرها فتشتري أزهى الملابس تتصابى بها في شوارع المدينة . أبوها يملك متاجر ودورا . في احداها تقيم هي في الطابق الأرضي وفوقها عمتها الأرملة دون أولاد . خصص لهما معاشا شهريا تعيشان به، بتقتير، في انتظار ما سيحدث للمنكودتين كما يقول . تزوجت حبيبة للمرة الثالثة بعد ما ظلت سنوات وهي تخيط الشوارع . وفي الشهر السابع من هذا الزواج ماتت بالكوليرا وزوجها ينتظر منها طفلهما الأول . أستلطف حضورها وهي تحكي لأمي عن همومها مع زوجها وأولادها في الرباط . ذهبت ارحيمو عند صديقتها الحدباء فطيمة جارتنا، وخرجت أمي الى المطبخ في حوش الكوخ . مليكة نائمة . دعتني حبيبة للعشاء معها فتلاشى تعبي . تسكن في حيّ مالقة . دست لي في يدي ألف فرنك مدعوكة :

– تصرف . إشترِ شيئا للشرب . سأخرج بعد قليل . انتظرني قدام سينما الحيّ .

أمي تطبخ . لم تكن تعترض على متى أدخل أو أخرج. أنام في الكوخ أولا أنام، انها عادة قديمة بيننا. رأتني أخرج وهي تضع شيئا في الطنجرة .

– سأخرج .

هزت لي رأسها ولم تقل شيئا . ليس من عادتها أن تطيل النظر الى الأشخاص . نظرتها مبهمة فيها حزن دائم. إنها تحتفي بي أكثر من اخوتي. ربما لأني بكرها، ولأني نجوت من المجاعة بمعجزة، ولأني ولدت في الريف وأتكلم معها لغة العائلة، وربما لأني أعيش

بعيدا عنها . اخوتي الذين ولدوا في طنجة وتطوان لا يتكلمونها وان كانوا يفهمون منها القليل . لا يريدون أن يتعلموها . أمي تكلمهم بالريفية فيردون عليها بالدارجة . يحاولون، ما أمكن، اخفاء أصلهم . يعتقدون أن الريفيين متخلفون . أمثالهم كثيرون عرفتهم في كل مكان : كبار وصغار .

حتى الآن لا أعرف كم كنا ! لقد كان يولد لي أخ أو أخت فيموت أو تموت وأنا في طنجة لا أعلم دائما. لم أسألها قط حتى وفاتها في 8-6-84.

في باريو مالقة شربت كأسين من النبيذ الأبيض عند دكان خمار اسباني، واشتريت منه زجاجة . كانت حبيبة قد نعتت لي الدار . بيتها بسيط ونظيف. ذكرني ببيت فطيمة في العرائش . حجرة امرأة وحيدة للنوم والجلوس، تجد متعتها في تنظيف وتلميع مفروشاتها التي تستمد منها بعضاً من إلفتها مع الحياة . على الحائط صورتها وهي طفلة مع أبيها في باب التوت، صورة لها في لباس العرس التقليدي، صورة أمها في إطار كبير، دميتان فوق خزانة الملابس، ساعة الجدار الدقاقة وساعة الكوكو، طاولة ليل تضاء بأباجورة، وطاولة ذات رخامة فوقها مرآة، وأدوات الزينة، وزهرية مزخرفة فيها باقة ورد حمراء محاطة بزهور بيضاء . شربنا وتعشينا طاجينا من السمك ودخنا ثم حكينا عن همومنا . عندما أتعبنا الحكي اتفقنا على أن الانسان لا يعرف حقيقة نفسه، وحقيقة الآخرين، الا في المصائب والكوارث . شعرها الآن أسدلته . كان معقوصا عندما كانت في كوخنا . صارت أجمل . حركاتها رشيقة، متناسقة، صوتها رقيق، وكلامها بطيء سعيد، ونظراتها ناعسة . تشرد، أحيانا، وأنا أحكي لها عن دراستي في العرائش، أو حياتي في طنجة. سرّني أن تدعوني للنوم عندها . لن أسمع اللعنات الحمقاء التي يتقيأها أبي في كوخ الشؤم كل ليلة. ألحت عليّ أن أنام في

فراشها وهي في المطربة (التخت)، لكني ألححت أنا أيضا على النوم في المطربة. نمت بكامل ثيابي . ساد الظلام والصمت . فكرت في رغائبي وشهواتي الماضية . هذه الليلة ليست هي الأفضل بين مثيلاتها، لكنها احداها . تقلبت عدة مرات . انها علامة الأرق كما تعودت . بدأ الشوق يهيجني . منذ أكثر من شهرين لم ألمس خلالهما أية ساق أو نهد. لم يدخ رأسي بلذة حقيقية مستطابة، غير أن الاستمناء له لذته، ومزاياه : فهو أكثر حرية، وخال من متاعب العلاقات الدائمة، وأمراض المحترفات . انما الأعمال بالنيات . ولكل امرئ ما نوى وهوى . هل دَعْوَتُها لي مجرد احسان؟ رفقة للتنفيس عن الهموم المشتركة ؟ أو هي مشروع رغبة حاضرة أو مستقبلة ؟ قد تكون دعوتها هي الرغبة الصريحة بعينها . لا أدري ما يخبئه لي جنونها الراقد ! لا أريد أن أكون سببا لها في رقصات جنونية أخرى، لكن رغبة افناء جزء مني فيها يُهيّجني ويأمرني هوسي بها . يحدث لي مرات في طنجة أن أستيقظ في فندق أو في بيت صديق ولا أعرف من هي التي تنام معي، أو تغادرني نائماً دون أن أراها ولا أتذكرإلا نبضي فيها : يكون السكر وصدفة الليل قد جمعانا، لكن حبيبة ليست صدفة الليل ولا نحن سكرانان. سأغتصب لطفها معي إذا هي امتنعت . لماذا لا أترك هذه الليلة تملؤنا بصمتها الجليل، ومتعتها الحميمة ؟

ومثلما يفسد الشوق الأهوج كل شيء جميل نهضت متلصص الخطو واندسست بكامل ثيابي معها . كانت تنام في وضع جنيني . شعرها منسدل على وجهها . تراخت متمططة واستقام جسدها ثم انطوت من جديد وصوتها الهامس حالم أومتعب :

-دعني أنم .

- أحبك،

- كفى من كذب الليل .

غباء . إنها على حق . أمَثّـلُ مهزلتي . ألححتُ على تقبيلها ولمسها لكي أتأكد من تمنعها ، لكنها مصرة على امتناعها دون أن تأتي بحركة نافرة . كانت واثقة من نفسها . لقد أخطأت قدمي وطأها . فجأة أحسست بجسمها ينتفض ويتصلب وبسائل دافىء يبلل سروالي . أتَبُول وهي يَقَظى ؟ قد يكون لها جنون البول مثلما لها جنون الرقص . في ماخور طنجة نمت مع ليلى البوالة فلم تبل أما حبيبة فقد بالت . انسللت قبل أن أثير فيها نوعا آخر من الجنون أو جنونها بأجمعه . خلعت سروالي وانكفأت على وجهي فوق مضجعي . انها تبكي . ربما هي تنظف نفسها من إهانتي لها أو أنها تبكي لكي ترقّ وتروق أكثر ، لكني لست مستعدا أن أمثل معها مسرحيتها . هناك نساء لا يلطفن ويرقن الا عندما يبكين ، لكن ليس لدي صبر جميل لمشاهدة هذا الدور . ماذا بَوَّلها ؟ أهو الخوف أو التشنج العصبي القاهر ؟ مع ذلك فإن حبيبة ليست هلاما أو طحلبا ، أو بطيخة صفراء عفنة مطروحة في عزّ الشمس كما قال يوسف ، كاره النساء ، في مستشفى الأمراض العقلية . لقد فكرت أن الفاكهة الانسانية إما أن تُقْطَفَ في أوانها أو تتعفن ، لكنني مخطىء . إن القطاف لم يحن بعد .

13

طائر السعادة

اشترت لي أمي سترة وقميصين وبنطالين لبدء الدراسة في مدرسة المعلمين . أخبرتها باقامتي عند حبيبة فقالت :

– أنت تعرف ما يليق بك .

بدأ يسكنني شيطان الأدب فصرت أهتم بقراءة الكتب الأدبية أكثر من اهتمامي بدروس علم النفس التربوي، والتشريع المدرسي . النصوص التي أعيرها اهتمامي هي اللغة العربية . أستاذها مقتدر فيها . بعد الشرح قد يعرب لنا النص بكامله المكتوب على السبورة . انه جدّ مؤمن وجدّ ماجن : الدنيا في يده اليسرى، والآخرة في يده اليمنى . يوم الجمعة، في أحد المساجد الصغيرة، يَؤُمّ الناس ويخطب فيهم . يعربد، ليلاً، في الرينكون أو في سبتة . صحبته مرات في سيارته القديمة . يضع فَخّـاً تحت المقعد الخلفي . يتوهم أن فأراً يسكن سيارته . إنه ذكي لأنه لا يأكل الطعم كله حتى لا يقع،

هكذا يقول .

ضبطني أستاذ التربية وعلم النفس أقرأ : <<البؤساء>> فأخرجني صارخا : << هذه قاعة الدرس وليست مكتبة . >> صرت أتردد على مقهى كونتيننتال . مريح وأغلب رواده أنيقون . تبدو على وجوههم آثار النعمة . تسعة وأربعين ألف فرنك، التي أتقاضاها في منحة التدريب، كانت مبلغا مهما عام ستين . أعطي جزءاً منها لأمي وأحتفظ بالباقي . أوزع وقتي بين القراءة بالعربية والاسبانية والعربدة في الحانات . حانة ريبرتيتو، المزينة جدرانها برؤوس الثيران، كانت أزهاها . أستمتع بالأغاني التي أسمعها من الحاكي الآلي في كونتيننتال . ثلاث أغان لا أَمَلّ من تكرار سماعها : الصبحيات لنات كينج كول، السّاعة للوشوغاتيكا LUCHO GATICA بيسامي موشو BESAME MUCHO لأنطونيو ماتشين ANTONIO MACHIN . سألت شاباً جالساً جنبي عن شخص أنيق يحترمه رواد المقهى، وتتكون حوله ثلة أنيقة ومنعمة وجوهها مثله :

ـ من هو ذلك الشخص ؟

ـ ألا تعرفه ؟ انه الأديب محمد الصباغ .

ـ ماذا يكتب ؟

ـ الشعر المنثور .

اشتريت كتبه : اللهاث الجريح، شلال الأسود، شجرة النار وأنا والقمر . (الأخيران مترجمان الى الاسبانية) كتب صغيرة الحجم.

قرأتها في يومين . قلت لنفسي : اذا كان الناس يحترمون من يكتب مثل هذه الأشياء فأنا أستطيع أن أكتب مثلها أو أفضل منها . الكتابة اذن امتياز . كنت أعتقد أن الأديب لا يُرَى في الأماكن العمومية ويتحدث الى الناس كما يفعل محمد الصباغ في هذا المقهى. ان الأديب إما هو خفيّ وإما هو ميت . كتبت شيئا في ثلاث صفحات . أسميت هذه الخربشات اللقيطة " حديقة العار " .

صرت أترصد محمد الصباغ حتى رأيته يوما جالسا وحيدا يشرب قهوته المضغوطة . اقتربت منه باضطراب .

-الاستاذ محمد الصباغ ؟

- نعم .

- لقد قرأت كتبك باعجاب كبير . أنا أيضا أريد أن أكتب . هذا أول ما كتبته . أرجو أن تصححه لي وتعطيني رأيك فيه .

وضع الصفحات بلباقة في جيبه . حييته واختفيت من المقهى حتى لا أحرجه وأحرج نفسي .

في الظهر يكون المقهى شبه خال . ومن عادته أن يتناول قهوته قبل أن يذهب الى عمله في المكتبة العامة . أعاد لي الصفحات في الغد قائلا :

-لغتك لا بأس بها . استمرّ في الكتابة بانضباط واقرأ كثيرا .

شربت معه القهوة السادة . ذكرت له شذرات عن حياتي في طنجة ، ودراستي في العرائش ، وتدريبي في مدرسة المعلمين . صار يوجهني قي قراءتي الشعرية بالعربية والاسبانية : غوستافو أدولفو بيكر،GUSTAVO ADOLFO BECQUER الأخوان أنطونيو ومانويل متشادو ، MACHADO ألكسندري فيثنيتيس ALEXANDREY VI-CENTES (كان يتراسل معه) بابلو نيرودا ، ثيسار ڤايخوCESAR VALLEJO، GABRIELA MISTRAL غابريلا ميسترال ورافايل البرتي ... واكتشفت بنفسي عذوبة شعرية رومانسية عند الشاعرات روساليا دي كاسترو (مترجمة من الجليقية (إلْ غايجو) الى الاسبانية ، إيملي ديكنسون (مترجمة إلى الاسبانية) مّيرا دلْ المار ، سو سانا مارش ، خوانا ايبار بورو وألفونسينا سطورني . قلما كنت أقتحم ثلته الأدبية . كان بعضهم قد ألف أكثر من كتاب ، وأنا كنت أحاول كتابة جملة جميلة . قصص من المغرب ، لأحمد عبد السلام البقالي ، كانت أول ما قرأته لكاتب مغربي . نشرت لي جريدة العلم

قطعة نثرية "جدول حبي" مع صورة بالبابيون . دَوَّخني الفرح وسكرتُ احتفالاً بموهبتي الأدبية الدفينة . اشتريت أعداداً كثيرة وزعتها على رفقائي المتدربين لأشعرهم بأهميتي بينهم . فكرت : ابن الكوخ والمزبلة البشرية يكتب أدباً وينشر . لكي أزكي أهمية نفسي المتبجحة اشتريت سترة وبنطالاً فاخرين، وربطات الفراشة، وسلسلة يدٍ زائفة مذهبة . تملكني الزهو والرفعة فتخليتُ عن المقاهي الشعبية في الفدان، والترانكات، وباريو مالقة وصرت أرتاد قاعة فندق ناسيونال، ومرقص المارفيل ليلا . صار عندي مقهى كونتيننتال من الدرجة الثانية، وحانة لابارّا LA PARRA من الدرجة الثالثة . أحلق وجهي مرة أو مرتين في اليوم الى حد البرنزة . أتعطر حتى صرت أحمل في جيبي قارورة صغيرة من عطرالجيب . ابن البراكة وعشير الفئران يتأنق، يتحضر، يتطور، يخرج من جلد خشن ليدخل في جلد ناعم . والالهام ... ؟ آه! لا بدّ من مُلهِمة، ابن الوحل يستلهم ... .

تبعت يوما فتاة سمراء . عرفت سكناها وأصلها . صرت أسير ظِلِّـها كلما صادفتها أو ترصدتها قدام منزلها أو قدام منزل خالتها . صَديقة لابنة زعيم مغربي . لقد تعلقت حيث ينشدخ رأسي . حليمة، جارة حبيبة وصديقة أختي ارحيمو، أمِّية، لكنها سمراء وجميلة . يمكن لها أن توحي لي بقصيدة غجرية، لكن طبعها الهادئ قد لا يوحي لي بشيء مُهم . أعنف الطبع هو ما تعودتُـه .

أعطت لي حبيبة مفتاح بيتها . أدخل وأخرج متى أشاء . لا تبيت، أحيانا، في بيتها . ذلك لون زهرة أخرى . أكثر من مرة رأيتها في سيارة أو ماشية صحبة من ؟ لا أدري من في شوارع النزهة الجديدة! تنحرف ... ؟ شغلها . غابت ولم تظهر إلاّ فـــي اليوم الثالث : آثار كدمة زرقاء على عينها اليسرى . ضربة قوية . هناك من يستعبدها . أصيبت أختي ارحيمو بدرن رئوي . أبي وأخي عبد

العزيز أيضا يسعلان بحدة . وباء شامل في أسرتنا . لم تسلم سوى مليكة وأنا . أمي شفيت لكنهاخاضعة للرقابة الطبية الدورية . أبي وحده ظل يُعالَج حُراً .

غابت حبيبة يومين . انتقلتُ الى فندق "الجوهرة السوداء" العائلي . فندق صغير . يديره أخوان اسبانيان : روساريو وكَرّيون. عشرون ألف فرنك في الشهر : غرفة صغيرة وثلاث وجبات . لا شك أن حبيبة تعيش قصة غرامية شقية .

زرت ارحيمو وعبد العزيز في المستشفى . انفجرا باكيين . امرأة ماتت في حجرة ارحيمو . لم تقتنع بعد أن من يمرض قد لا يموت . أمنا معجزة .

صحبت محمد الصباغ الى منزله في المدينة القديمة . حجرة انسان متعبد لفنه . عنب، تفاح، واجاص في صينية . ضياء شاحب يُعَمِّقُ صمتاً شاعريا . شوبان : ليليات مايوركا وقراءة رسائل ميخائيل نعيمة. خرجتُ من عنده متمنيا أن يكون عندي بيت متوحد مثله . يصحح لي كتاباتي بكلمات منحوتة، جد شفافة، لكنه من طينة وأنا من طينة . إنه لم يقتت من زبل المرَفهين، ولم يُقَمَّل وعرقوباه مشقوقان، داميان . أنا لا أعرف كيف أكتب عن حليب العصافير، واللمس الحاضن للجمال الملائكي، وعناقيد النَّدى، وشلاّلات الأسود، والعندلات . أنا لا أعرف كيف أكتب وفي ذهني مكنسة من بلور . المكنسة احتجاج وليست زينة .

زرت حبيبة لأعطيها مفتاح بيتها . شاحبة، والهة ويائسة . اختنق صوتها وانبَحَّ :

– لماذا ذهبت ؟ ماذا أزعجك ؟

يبدو عليها أنها بكت .

– لا أريد أن أزعجك .

–لا تزعجني في شيء .

على الطيفور (مائدة مستديرة)قنينتا بيرة فارغتان، وعلبة سجائر شقراء. همّ جديد غزاها. منهارة. حتى عمتها لا تراها. تعتبرها فاجرة: عمتها التي ينكحها حارس مرأب الحيّ. لم تكن لحبيبة صديقات. اقترحت عليها أن أجلب شيئا نشربه معا. تهلل وجهها فرحا. أريد لمزاجها أن يروق. ذكرني حزنها بفطيمة في العرائش عندما تمرض ابنتها سلوى. سلوى ويوم الشتاء في الحديقة الخالية. سلوى التي قد لا أراها أبدا. لم أتركها تدخل يدها في حقيبتها الصغيرة. تبرعم طيف بسمة ثم انفغر البرعم فانجمل وجهها فاذا بها أصبى. سنتعشى معا. لحم الغنم بالخرشوف والجلبانة. نَفْحُ بَرد منعش يصفع ورذاذ. في دكان الإسباني طلبت كأس نبيذ خيًريث. اسبانيان عجوزان يتحدثان عن فن مصارعة الثيران. تَرَدّى اليوم في التجارة. يتحسران على خوسي باراندااس، مرسيال لالاندا (شيكويلو) الشجاع، وفرانسيسكو بيرالطا، خوسيليتو الغايو، ومنويل بينفينيدا ميخياس، وخوان لويس دي لا روسا (فاشيستي قتل في برشلونة في بداية الحرب الأهلية الاسبانية) ومانوليطي العظيم. حين يختلفان ويحتدّ نقاشهما يحكم بينهما الدكاني ملطفا هياجهما. شربت كأسي الثانية واشتريت زجاجة نبيذ أبيض. فكرت في حبيبة وأنا عائد: من الأفضل لها ألاّ تحضن على بيضة حبّ من جديد حتى لا تعود الى رقصها الجنوني في المستشفى أو في شوارع سبتة، لكنها ربما تجد، بين فترة وأخرى، نشوتها، وتصريفا مريحا لقلقها في هذا التشرد الأهوج. طلاقها الأخير أفقدها الكثير من نزاهتها وهي لم تبلغ بعد الخامسة والعشرين. أطفالها الأربعة ولدتهم مثل أرنبة: توأمان والاثنان الآخران الواحد تلو الآخر. ولكي تدبر أشغال المنزل كانت تربطهم من أرجلهم الى قوائم السرير، والتخت، والمنضدة، متباعدين حتى لا يتخامشوا، ويتخاطفوا قطع البسكويت. لم تعش قط حياة جميلة. لحظات

فرح قد تسرقها . حظها سيء منذ باكر عمرها .

رائحة طبخ لذيذة تسربت من المطبخ فعمت الحجرة . انبعثت فيها حيوية مرحة . كلماتها صارت تمسح غبار كآبتها على وجهها . نتلاطف بالأنخاب والبسمات فإذا بها تشرق كما لو أنها في حفل زاه . مدحت مهارتها في الطبخ : اللحم بالخرشوف والجلبانة أكلتها المشتهاة . تسميها الوزير الأول .

رقّت ملامحها . قالت :

– لم أعثر بعد على من يفهمني مثلك .

– لا ينبغي لنا أن نثق كثيرا في السعادة . انها آتية هاربة ، منفلتة كلما أردنا القبض عليها . قد تكون مثل عصفور جميل يحط على حافة شرفتنا . لا نكاد نقترب منه حتى يطير . هل تعتقدين أن العصفور سيحط على الكتف ويغني لك أولي كما نتخيل ؟

–أفهم .

– هذه هي السعادة اذن : انها لا تحط على الكتف وتغرد . انها تظل على حافة الشرفة .

وافقتني ونسمة الانشراح تسترخيها .

– أنتِ على حق .

كنت أيضا أعزي نفسي لأنّ حياتي ليست أجمل من حياتها .

14

الحالمون

في ذلك الصباح الطري، النسيمي، خرجت من دار حبيبة وكأني ماش في الهواء، خفيفا مثل ريشة . مازالت نائمة . انغلق الباب آليا . سروالي ما زال مُبْتَلاً قليلا .

طلبت فطورا في مقهى القائد اليزيد . فونوغراف لافوا دوصون متر في ركن . حتى نهاية الأربعينات تركتهم يشغلونه بذراع التدوير. أغاني أم كلثوم، وأسمهان، وعبد الوهاب، وفريد الأطرش كانت هي السائدة . لقد احتفظوا بالفونوغراف شاهدا على تلك الفترة : تحفة ذكرياتهم وثقافتهم . سأنتظر حتى تذهب أمي لتبيع الثياب المستعملة في باب التوت، وأبي إلى الفدان وفي ذهنه حكايات جديدة ملفقة يحكيها عن شجاعته للمتقاعدين أو الهاربين مثله من حرب فرانكو . كلهم لهم حكاياتهم الكاذبة . لم يكن، في الواقع، شجاعا حقيقيا الآ في حربه معنا، وإن بدأ ينهزم عندما كبرنا . غير

أنه، بين فترة وأخرى، يضرب أمنا حتى يدميها أو يُزَرِّقَ لها إحدى عينيها أو هما معا. ذات يوم أعياه الضرب فرفع القدر التي يغلي فيها محلول السكر الذي يصنع به العسل لبيعه في سبتَة، لولا الجيران، الذين استغاثت بهم، لأفرغ المحتوى على رأسها. عندما جئت أمسكت مدَقّـة الهاون وهددته بتهشيم رأسه إن هو عاد الى جنونه معها. خرَج الى دار جارنا وانخرط في نوبة من البكاء وهو يردد: "المسخوط يهددني بالقتل. يهددني بالمهراس. لو خنقته وهو صغير لتخلصت منه." تذكرت كيف انفجر دم أخي عبد القادر عندما لوى له عنقه. تلك كانت آخر مرة يضربها. لقد اكتفى بشتمها ولعننا.

وجدت ارحيمو تسعل محمومة. حين يهدأ سعالها تهدل مثل حمامة. عصير البرتقال هو الدواء الذي تركته لها أمي. غسلت سروالي وحلقت وجهي وخرجت. اشتريت حبة حلوى من عبد العزيز وتمنيت له يوما مربحا. قال بمرحه المازح:

- انك أول من أفتتح به هذا الصباح. سأرى إن كنت طالع سعد لي في هذا اليوم.

قبل القطعة النقدية الصغيرة ووضعها في جيبه. تباسمنا وانصرفت. قبل انعطافي في الدرب سمعت فطيمة، جارتنا الحدباء، تُصَبِّح. حييتها واختفيت. شقية بعاهتها. تجد عزاءها في الروايات الغرامية التي تقرأها في طبعاتها الرخيصة، وفي رسائل الحب التي تجيب بها عشاق صديقاتها الأميات العاشقات. انها كاتبة عمومية للكبار والصغار في حينا. أدركت أن جمال الحلم، في اليقظة والمنام، هو كل طموح وثروة هذه الأكواخ. ان الفقراء هم الحالمون الحقيقيون. يحلمون، وهم في قواقعهم، بالاتساع، والعمل المثري، والمآدب، والحفلات الصاخبة حتى يغمى عليهم رقصا وغناء. الكابوس أخفّ في وطأته عليهم بثقله الملازم للأسياد

والأغنياء : انهم يُكَبِّسون (من الكابوس) أكثر مما هم يحلمون .

لست دارياً لماذا أشعر بفرح غامر هذا الصباح رغم ما حدث لي مع حبيبة . قرأت، في المكتبة الانجليزية، فصولا من رواية جين إير ثم ذهبت الى مقهى الفدان . صاحبت أحدهم في لعب الورق ضد اثنين . الرهان على الشاي . صاحبي هوالذي سيدفع عني اذا خسرنا . ربحنا وخسرنا ثم ربحنا . عندما داخ رأسي باللعب والكيف ذهبت الى مقهى أوماينو (بالريفية : أخي) في الترانكات . لم أدخله منذ عودتي من وهران عام 51 . وجدت هناك كوميرو وبطاطي . تعانقنا بحرارة. حوالي عشر سنوات مضت على عراكنا.

كانا يلعبان زهر النرد (البِّرشي) ويشربان الماحيا من قنينة خفية في كأس صغير . غافلت معلم الوجاق فشربت كأسي . وجهاهما ينمان عن ادمانهما على هذا الشراب القوي . كوميرو يشتغل اليوم حاجبا في البريد . بطاطي سقط من على ظهر شاحنة محملة بالسلعة : كان يعمل فيها مساعدا للسائق فتكسرت رجله وأصبح يعرج . قال كوميرو مازحا :

– لقد تعمد أن يسقط حتى يستفيد من التأمين ويتخلى عن العمل طوال حياته . انه أكسل من عرفت . ألا تذكره ؟ هل رأيته يوما يشتغل ؟ كان يسرق أباه بمهارة، عندما مات لم يعرف كيف يسرق الآخرين .

ابتسمت ولم أقل شيئا . فكرت : بطاطي كان يسرق في مقهى أبيه عندما ينوب عنه وقت القيلولة أما أنت فقد كنت داهية في سرقة الآخرين .

سألني كوميرو :

– وأنت، أين وصلت؟ اننا نعرف أنك تدرس في العرائش .

– نجحت في الدخول الى مدرسة المعلمين في تطوان .

–ستبقى معنا اذن طوال مدة التدريب .

-نعم .

قال بطاطي :

-أنت الرابح والمحظوظ بين جماعتنا .

- في أيّ شيء ؟

-انه امتياز . (أضاف) أفضلنا لم يستطع أن يصبح أكثر من عامل أو تاجر صغير أو مهاجر الى الخارج . ان حياتك مضمونة مع الدولة، ثم انك ستصبح أستاذا .

-لقد صار التفرسيتي أيضا غنيا .

-التفرسيتي شيء أخر . أنت تعرفه خيراً منا . لقد كنتما متلازمين . انه يأكل ويخاف أن يجوع . لقد عاش شحيحا . لو كان يستطيع لباع بعض المصات من بزولة (ثدي) أمه وهو في الرضاع .

- لكنه اليوم ينفق جيداً على نفسه .

- كفى، انك لا تعرفه اليوم .

- أعرف، انه ينفق على من يظنهم مهمين .

- ها أنت بدأت تفهم الآن . لقد ترك أباه يموت فقيرا في كوخ وهو يسكن في شقة اشتراها في عمارة فخمة جديدة . انه سيموت وعلى وجهه الجوع الماسخ .

قال كوميرو :

- لم يبق في المزبلة سوانا . لكننا لم نبلغ حافة اليأس . أتدري أنه حتى البطيخة الذي كنا نتناوب عليه بسنتيمات، أو بتذكرة السينما، صار اليوم أيضا غنيا ويستغل الغلمان . انه متزوج وله أطفال .

عند الكأس الرابعة بدأ رأسي يدوخ . تملكني وسواس : قد ينتقم مني كوميرو اذا انا ثملت . ان الندبة التي سببتها له أثرها بارز على خده الأيسر . اعتذرت لهما عن انصرافي . قال كوميرو بلهجة ودية ناسيا حقد تضاربنا القديم :

-متى سنراك ؟

- سأبقى هنا سنة كاملة . سأتردد على المقهى .

غادرتهما وأنا في كامل بهجتي . لو شربت كأسا أخرى، أو اثنتين، لفقدت تماسكي . السابعة .

كوخ الشؤم لن ينام الا بعد ساعات . حيّ الترانكات يموج بالحركة كما تركته في نهاية الأربعينات والخمسينات . ربما اليوم أكثر . اختفت وجوه من الدكاكين، وحلت فيها وجوه أخرى . بعضهم شاخ سيئا . أمي تخبرني عمن اختفى منهم بالمرض أو الموت.

حبيبة هي المنقذة في هذه الليلة . استقبلتني بترحاب . ربما فهمت أني أفضل النوم عندها . ابتسامتها اللطيفة ومصافحتها الودية أكدت لي أنها ليست غاضبة مني . ربما هي أيضا في حاجة الى من يؤانسها .

-سنبقى صديقين .

ابتسمتْ ووافقتُ بهزة من رأسي . كانت هي الأقوى . عبثا أحاول أن أكون أفضل منها . فهمت منها أنه ينبغي الاّ تكون بيننا شهوة الجسد . كؤوس الماحيا غلبتني مثلما يغلبني الأغوار دينتي، والأنيس دل المونو أو التري . استرخيت على المطربة وغفوت . أحسست بغطاء فوقي . هَذا ما كنت أحتاجه .

نمت حوالي ساعتين . . كانت قد أعدت العشاء واشترت زجاجة نبيذ أبيض . أنعشني ترطيب رأسي ووجهي بالماء البارد . فريد الأطرش يغني في الراديو : يا زهرة في خيالي .

15

روساريو

تعتزُّ روساريو أنها من أستورياس، وأنها ولدت في أفليس AVILES، وأنها تتكلم البابلي (دارجة يتكلمها أهل أستورياس)، وأنها تكره فرانكو حتى الموت، وأنها تزوجت مناضلاً من خيخون مات مُشَهِّداً بالديموقراطية .

غالبا ما نكون، أنا وفرمينْ فيتو FERMIN FEITO وحيدين في قاعة المطعم الصغيرة : أربع موائد . أحيانا، تشاركنا احداها ماريا روساريو مدخنة وراشفة قهوتها أو كونياكها أو هما معا . فرمين فيتو يعتز، هو أيضا، بمولده في بلدة الفِرُّول EL FERROL (مسقط رأس فرانكو) .

من عادتنا، أيضا، ألاّ نجلس معا إلى مائدة واحدة . عرضت عليه مرة أن يجلس معي فاعتذر بأدب بالغ . روساريو تجلس معي عندما أكون وحيدا . جلوسنا معا فيه نوع من التواطؤ ضده . انه

ستبجح عن خواء ، كما تقول روساريو . عندما يكون حاضرا تنفرد بمائدتها أو تبقى في المطبخ أو تذهب وتجيء . انه بالغ الحساسية ووجهه لا يوحي بالصداقة . هكذا قالت لي عندما رأته يرفض الجلوس معي . هذا المساء لم نسمع صخب لعبهما الورق . شيء ينقصنا رغم انزعاج فيتو من صراخهما . من يغش الآخر ؟ انّنا لسنا الآ شاهدين على احتجاجهما ، لكن كاريّون يحتج أكثر منها . ان صراخها يعلو أكثر منه لتغطي غشها كما يقول فيتو . عندما ذهب فيتو عرفت أنها حانقة على حفيدتها كانديدا . تدخن سجائرها الرخيصة وتشرب كونياكها الرديئ . تظهر وتختفي مضطربة وكأسها في يمناها ، وسيجارتها في يسراها . فرت كانديدا من داخلية جمعية أخوات الاحسان ، في طنجة ، منذ ثلاثة أيام . أكيد أنها لم تخرج من المغرب ، ولم تذهب عند أمها الممرضة في مكناس . قد تكون عند صديقتها ماريسا في طنجة . ان جواز سفرها تُخفيه عنها جدتها : ' لقد عانت الكثير من أمها والآن جاء دور ابنتها . ' هكذا قالت لأخيها ، لكن كريون لا يعلق بشيء على ما تقوله أخته . انها تكبره بسنوات . في أبريل الماضي احتفلت بعيد ميلادها الثاني والستين . كريون يدخن تبغه الذي يبرمه بمهارة متلمظا بشرب الكاراخيو (قهوة ممزوجة بالكونياك) ، ويسلي نفسه بقصص الأطفال المصورة . عندما يتكلم يُهَمْهِم ، لكن أخته تفهمه بوضوح . أنفه مهشم . ملتو . أهي سقطة؟ لكمة عنيفة؟ يتقوقع في المطبخ متحاشيا ما أمكن الحديث مع الزبائن . روساريو لها مزاج أندلسي رغم أنها من أفليس ، وتعابير محببة لا أسألها عن معناها . لقد عاشرتْ كثيراً الأندلسيين الذين هاجر معظمهم المغرب بعد الاستقلال . سمعتها تخاطب حفيدتها عندما زارتها ورأتها تطل من الشرفة الى الشارع : ' أيتها الطفلة ، أغلقي النافذة . ان ثور الريح سيأخذك ... ' . ' كل شيء له استفهامه . ' ' من يتكلم عن ربيع

الروح وهناك ذلك الجدار المنيع ... " لكن ها هو اليوم ثور الريح يأخذها، وأصبح هروبها علامة استفهام، وقفزت فوق جدار داخلية أخوات الاحسان المنيع، ولا تعرف جدتها أين ذهبت!

أحب روساريو عندما يحتدّ نقاشها مع فيتو حول الحرب الأهلية الاسبانية، أو حول الكنيسة والرهبان . تهزمه بحججها . تستشهد كثيرا بما تقرأه . انها محظوظة لأن قلة من بنات جيلها الفقيرات أتيح لهن أن يتعلمن . أؤيدها دائما، حتى عندما تكون مخطئة، ضد فرمين فيتو . انه يغتابها بلهجة خبيثة كعادته . هذا المساء قال عنها بصوت خافت شامت : "ان العجوز الساحرة قد هرب لها قديسها الى السماء (يقصد أنها لم تعد تعرف ما تُقدم وما تؤخر) . أراحتنا من صراخها مدافعة عن غشها في الورق . مسكين كريون الذي قُدِّرَ له أن ينهي حياته في ظلِّها !انها ملحدة ومنافقة!"

لكن روساريو أشرَس منه عندما تنّم عليه : "بخيل، انتهازي، منافق، يحضر القداس يوم الأحد حتى ترضى عنه الهيئة الديبلوماسية الاسبانية . انه يجهز ملفه لضمان عودته الى اسبانيا مواطنا صالحا لكي يحصل على ترقية العمل هناك بامتياز . أتدري لماذا يمجد فرانكو؟ لأنه من نفس بلدته . يعتبره أفضل من حكم اسبانيا بعد الملكين الكاثوليكيين : ايسابيل وفرناندو، وكارلوس الثالث . أليس أبله ... "

حكت لي بصوت أليم عن زوجها الشيوعي الذي أعدمه الفاشيون في تطوان : "كان فرانكو يتناول افطاره وهو يوقع على الاعدامات . عشرة، على الأقل، كل يوم . وكان زوجي واحدا من تلك الافطارات السامة . أتدري كيف استولى على الحكم ؟ قيل أن أخاه نيكولا هو سبب هذا التاريخ المنكود في اسبانيا . ان القانون العسكري الذي سنّه رفقاؤه في الانتصار يَنُصُّ على أن فرانكو هو رئيس الدولة والحكومة مؤقتا، لكن أخاه دفع النص الى المطبعة بأمر

عسكري مستعجل، حاذقا مؤقتا، فأصبح حكم فرانكو أبديا . دكتاتورية مؤقتة لاعادة النظام الى البلاد ثم يذهب الى البادية ليعيش في هدوء كما قال يوما ساخرا . لكن بعد أن استتب له الحكم صار يقول : "ان حكمي يدوم مدى حياتي . اسبانيا ملكية بدون ملك، لكننا ملكيون"، ولكي يدعم أبديته كان لا بدّ له من أن يشرك الكنيسة في الهبة السماوية التي اختلقها حتى صارت حربه نوعا من الصليبية ضد الشيوعيين . كان لا بد له، أيضا، من أن يبعد عنه معظم الذين تعاونوا معه في النصر أو نفوا أنفسهم الى فرنسا، والمكسيك، والأرجنتين، وروسيا . لقد تخلى عن خوسي أنطونيو بريمو دي ريفيرا (1) ليقتله في سجن أليكانتي حتى لا يزاحمه أحد في فاشيستيته . كان في امكانه أن يقايض به الزعيم الاشتراكي لارغو كاباييرو LARGO GABALLERO لكنه آثر أن يعدمه لكي يتخلص من الاثنين . لم يكن يثق حتى في ظله . لا يغامر أبدا بتقرير شيء اذا لم يكن المسجون عنده فيه نفع يديم له حكمه . لم تكن اسبانيا، لصياد الأرانب والخنازير البرية، سوى ثكنة عسكرية . أتدري لماذا كان يصر على الظهور باللباس العسكري البحري المزدان برتبة قبطان جنرال للبحرية؟ لأنه رسب في الالتحاق بالأكاديمية العسكرية البحرية في طليطلة . وهاجم أيضا الماسونية لأنه لم يسمح له أن يكون عضوا فيها . كان رفاقه الضباط يسمونه " الرجل ذا الميمات الثلاث ". (2) .

هكذا باركته النجوم . ومع ذلك فإن فيتولا يخجل من أن يقول إن الكاوديو هو الذي أعاد لإسبانيا مجدها الذي فقدته عام 1898 .

---

(1) مؤسس الفلانخي : منظمة الكتائب المعروفة بالقمصان الزرقاء

(2) لا خوف، (أولا لوطيون كما يروي البعض)، لا نساء، لا قداس

SIN MIEDO (SIN MARICONES COMO CUENTAN AL gunos) SIN MUJERES, SIN MISA

- ولكي يعاد لإسبانيا بعض من أمجادها المندحرة في كوبا، وبويرتوريكو، وجزر الفيلبين كان لا بدّ من افتراس جزء من المغرب ثم تجنيد المغاربة السذج في جيشه، طوعا أو عنوة، ليحاربوا الذين لا يؤمنون بالله كما قال لهم .

قالت :

- ان أطماع الطغاة لا حدود لها كما تعرف . أعتقد أن فرانكو كان أمكر من ملهمه في الدكتاتورية ميجيل بريمودي ريفرا . فرانكو يدعي دائما أنه في عمقه ملكي، لكن الملكية الاسبانية ظلت منذ قرن كامل وهي تجرّ أذيال الهزيمة، وتَوَهَّم نفسه أن السماء أرسلته ليمحو تخاذلها، والحزن الذي تردَّى فيه هذا القرن الاسباني . ولم يقتصر هذا الغرور على اسبانيا : فلقد أعلن إثر انقلابه العسكري ضد الجمهورية الثانية رسميا : " لنا الفخر أن نكون أول دولة تنهض للدفاع عن الحضارة الغربية المهددة بالأفكار الشرقية . " لكن قيمة هذا الدفاع المتبجح ظهرت عندما أقصناه الرأي العالمي، بعد عشر سنوات، من مجلس الأمم المتحدة . لم يسانده في عزلة حكمه الآ الجنرال پرون PERON . وستمرّ حوالي عشر سنوات أخرى لكي تشفع له الولايات المتحدة (1) والفاتكان (لمصلحتهما) فتدخل اسبانيا مجلس الأمم المتحدة عام 55 . وهكذا ربح الحرب نهائيا وزاد وقته لرسم مراكبه الغارقة. (2) والخيانة، في نظره، أيضا، تأتي دائما من الجبهة الشعبية الوطنية التي لا تساند الجيش. إنها ترهبه ولا تثق فيه لأنه، وهي على حق، يخدم مصلحته على حساب تضحياتها . هل يعقل، مثلاً، أن يحكم بالإعدام على جندي من الليخيون (3)

---

(1) انشاء قواعد أمريكية في كل من تريخون TERREJON، سرقوسة ZARAGOZA، مرون MORON، وروتا ROTA فضلا عن مساعدات اقتصادية هائلة .

(2) كان يمارس هواية الرسم ومواضيعه المحببة رسم مراكب تغرق.

(3) فرقة المتطوعين المرتزقة .

في المغرب أساء الأدب على رئيسه لانه رفض أن يأكل العدس الذي لم يعجبه؟ ان النصر العسكري يأتي من انضباط الجنود وطاعتهم العمياء حتى ولو كان رؤساؤهم مخطئين . هكذا كان فرانكو يبرر جرائمه . لم يكن يرى في الأحزاب السياسية سوى التفرقة والانسلاخ عن حب الوطن وعدم خدمته . أما الألمان فقد كانوا يعتبرونه إكليروسياً رجعيًا وليس فاشستيا حقيقيا . لا يؤمن إلا بفعالية نظامه وشرعية انقلاب الثامن عشر من يوليوز .

لم يفاجئني رسوبي في امتحان التخرج . لقد أهملت، عمداً، كل مواد الدراسة لأقرأ الأدب، لكن تعييني في طنجة عزّاني . جارنا، المأمور في نيابة التعليم، سيخبر أبي . سيسرّ لأن رسوبي يؤكد ما كان ينعتني به من جهل . لم أشعر بأيّ خزي ولا ندم حتى اليوم .

شفي عبد العزيز وارحيمو . عاد هو الى دراسته ودكانه الصغير، وعادت هي الى خياطتها والعناية بالكوخ . أبي لم ينقطع عن حلقات المعطوبين في ساحة الغدان أثناء مرضه وبعد شفائه، لكن نوبات الربو بدأت تطرحه في الفراش . ظل يعاني منه حتى مات عام 79 ..

زرت أمي في سوق باب التوت . أعطيتها مساعدتي الشهرية . أضفت لها مبلغا لتعطيه لأبي . أعرف أنه سيبصق على ذلك المبلغ البسيط ويلعنني كعادته، لكنه لن يرفضه أو يتصدق به على متسول . سيكفيه لنشوقه وأكواب شايه لأسابيع في الغدان . لقد كنت أريد إرضاء أمي لا إرضاءه. لثمت يدها . دمعت عيناها وأنا أودعها . لم تلحّ علي في تفقد أسرتنا بين فترة وأخرى . أكيد أنها علمت برسوبي . . استبطنت علمَها في نظرتها إليّ، لكنها لم تقل شيئا . انها تعرف أن عادتي هي أن أجيء أولا أجيء، بمناسبة أو غير مناسبة . اشتريت هدايا صغيرة لإخوتي، ولحبيبة، وجارتنا الحدباء .

رأيت السمراء في الشارع . تبعتها حتى رأتني. توقفت أمام واجهة متجر وبدأت لعبة الالتفات . ابتسمتْ . كافحت خيبتي وذهبت الى حانة ريبيرتيتو. فكرت : حماقة تافهة . ان الحب لعبة قذرة . لا أريد أن أعيد ما حدث لي مع كنزة . تذكرت قصة قاسم مع صديقته اليهودية نتالي قبل أن يُجَنَّ : كانت الثالثة صباحا . المطر يسقيني قدام منزلها . كنت مثل شجرة ميتة . كلبها الضخم، الشرس، ينبح عليّ وراء شباك باب الحديقة . رفعت عينيّ نحو السماء في مذلّة . أغمضتهما . قطرات تدغدغ أجفاني . بدأت تغزوني الحُمّى . فمي مفتوح وعيناي مغمضتان . حب خائب . مطر وليل لا ينتهي في وهمي . الحلم بها كان هو نسر ذلك الليل المطير . تجمّع كل غضبي في يديّ معاً . خبطت بهما الجدار . المطر يغسل دمي . ربما هي الآن تنظف أمعاءها وأنا هنا أسقي زهور تفكيري فيها في ظلام هاطل . أهذه بطولة الحب؟ ليسقط هذا المستحيل! هكذا رفعت صوتي نحو السماء . أعرف أن ظلالا كانت دليلا لمن ضلوا طريقهم . صرت ظل نفسي وحكمت عليها بالنفي الأبدي .

شربت كؤوسا من نبيذ خيريث، ثم ذهبت عند أنيتا في بات التوت . ان احترافها لم يفقدها رقّتها وطيبتها . ذكرتني نظافتها المعطرة بكريستوفالينا في طنجة . هذه هي المرة الثالثة التي أجيء عندها منذ اكتشفتها في بداية هذا الشهر . شربت عندها كأسين من الأنيس دلْ المونو Anis del mono .

جاءتَ كانديدا منذ أيام مع أمها من مكناس . رفضت العودة الى داخلية أخوات الاحسان . هذه أول مرة أجلس معها . تحدثنا عن الكتب والكتابة . بدت لي أعقل مما قالته لي عنها جدتها. روساريو تعزو فشلها في دراستها الى حبها لشاب هاجر مع أسرته الى قرطبة . أبوها أيضا هرب من الفاشيين الى كندا قبل أن تولد بشهرين . كتب رواية عن المناضلين الجمهوريين الاسبانيين في شمال المغرب .

سمعنا عنها ولم تصلنا . أخباره انقطعت عنا منذ أكثر من عشر سنوات . هكذا قالت روساريو.

كانديدا تقرأ كثيرا . تكتب خواطرها الرومانسية عن خيبتها في الحب وسأمها من الحياة، وسوء حظ أسرتها . تجتاز العشرين من عمرها وبدأت الهموم تنضجها جيدا، لكنها لا تعرف ما يمكن لها ان تفعله في المستقبل . كنت قد اشتريت زجاجتين من نبيذ ريوخا ، وبطة كبيرة أعدها كَرْيون بنفسه لأنه يعتبر نفسه أمهر من أخته روساريو في طبخ الدواجن . كريون اعتصم ، كعادته، بالمطبخ ليتعشى وحده . كان عشائي الأخير مع أسرة روساريو. فرمين فيتو لا يجيء أيام الآحاد، لكنه لو جاء فلربما اعتصم بمائدته حتى وان شاركنا في العشاء .

16

من العسل إلى الرماد

عينوني في مدرسة الحيّ الجديد للبنين والبنات . أسندوا لي القسم التحضيري . القسم، في جانب من الساحة، براكة من خشب تقطر في الشتاء وقد يَنِقّ قربها ضفدع . أكثر من أربعين تلميذاً في كل سنة . عدد البنات لا يتجاوز الربع، انه نداء التعبئة من أجل التعليم بأبسط الوسائل الممكنة . بائسون : وسخ، جوع ومرض .

أرفع قَلَماً في يدي وأسأل :

- ما هذا ؟

يجيبون جماعة :

- ما هذا ؟

-هذا قلم .

يجيبون :

- هذا قلم

- وهذا ؟

-يجيبون :

- و هذا ؟

- هذا دفتر .

- يجيبون :

-هذا دفتر .

تقيأ تلميذ بقايا زيتون فقال واحد منهم :

-انه يأكل الزيتون مع أبيه السكير يا أستاذ .

باسَ تلميذ تلميذة فكانت مشكلة . ولكي أردّ لها الاعتبار أمرتها أن تبوسه هي أيضا فكفت عن البكاء . انها محنة الجهل في بداية الستينات : من يُعَلِّم ومن يتعلم . بعضهم لا دفتر له ولا قلم . وجباتهم لا يتناولونها بانتظام . بينهم واحد أحمق . سماه التلاميذ " طمخوخ " . يصر دائما على الجلوس في الصف الأول على أي مقعد يريده . يسلي التلاميذ حين لا يضرب أو يعض . أسنانه كبيرة . وجهه منغولي . يرمي عليّ، أحيانا، حين أكتب على السبورة، قطعة طباشير أو ورقة مدعوكة مكورة . عاقبته مرة بالمسطرة على يده فامتلأ وجهه غضبا وبدأ ينتفض . تلك كانت المرة الأخيرة التي أهتم بوجوده في القسم . كان الملعون يتسلى . قدمت عنه تقريراً الى الإدارة . بينت أن عملي يتعطل بسببه : " خير له أن يبقى معنا في المدرسة بدلاً من أن يظل يزعج الناس في الحيّ " . هكذا ردّ عليّ المدير . يعترض طمخوخ أيضا الحافلات العمومية واقفاً في وسط الطريق . يهبط الحصال ويعطيه سنتيمات، أو أيّ شيء يأكله، أو يتسلى به، لكي يترك الحافلة تمرّ .

داخل القسم يتمثل نفسه قاطرة وصفوف التلاميذ وراءه عربات : تشف ... تشف تشف ... عووع ... !عووع ... !

كل القسم يضج بالقهقهات . ينام ويستيقظ في القسم متى

يشاء، ويخرج ويدخل متى يشاء . قد يخرج ولا يعود فأرتاح . وعندما يغيب أكثر من يوم أتمنى ألا يعود، ولكنه يعود .

زارني مفتش التعليم زيارة تفقدية . شكوت له حمق طمخوخ . لم يصدق حمقه . اقترب منه ومسّد له شعره الخشن، المشعث، بحركة لطيفة :

- أنت بعقلك، علاش كتعمل الفوضى ؟

وما أن هبّط يده مربّتاً على كتفه حتى انقضّ طمخوخ على يده وعضها . ضج التلاميذ بالضحك ثم أصمتتهم نظراتي . أنا نفسي بذلت جهدا كي أغالب ضحكي . بسبب هذه الحادثة طرد طمخوخ من المدرسة، لكن لا أحد يستطيع منعه في الحيّ من اعتراض الحافلات العمومية وغيرها من السيارات والدراجات النارية . وبعد غيابه أخذ التلاميذ يتأسفون على طرده .

لقد أدركت أن هذه المهنة لم أكن أهلا لها . ينقصني الصبر الجميل للوفاء لها، لكنه لم يكن لي الخيار بعد حصولي على شهادة البروفي. (ثلاث سنوات من الدراسة الثانوية في ذلك الوقت) جاءت لجنة الى ثانوية مولاي عبد الله في العرائش وأجرت لنا اختبارا في رزّات الذكاء . نتيجتي كانت من بين الذين قررت اللجنة إيقافهم عن الاستمرار في الدراسة لكبر سننا . سني رسميا كانت عشرين سنة، وفي الواقع خمسا وعشرين .

سكنت من جديد في بنسيون لابلاتا . وربما لاستعادة ذكرى ربيعة وكنزة . فضلت غرفة صغيرة على السطح مطلة نافذتها على البحر وسطوح المدينة القديمة . يجاورني توماس الروخو في كوخه الخشبي . يعيش حياة عنكبوت . يكره فرانكو مثلما يكره المرء دم أسنانه : لم يكن فرانكو ماهراً في قتل الأرانب والخنازير، كما يقال عنه، بل كان ماهراً فقط في قتل أنبل الناس . كان رفاقه في الصيد وأعوانهم هم الذين يقتلونها ويضعونها عند قدميه فتؤخذ له صور

مزهوة . كان أيضا يرسم، دون أية موهبة، مراكب تغرق . كيف يمكن لمن يدعي حب الفن أن ينفي بيكاسو ؟ قيل أيضا أنه كان معجباً بفاي-إنكلان VALLE-inclan لكنه سمح بقتل لوركا، وسجن ميجيل إرنانديثMIGUEL HERNANDEZ حتى الموت تاركاً زوجته ترضع ابنهما البصل من صدرها (1) هذا أيضا ما يقوله توماس .

يعيش توماس منعزلا في كوخه وفي الشارع . دار إسبانيا يعتبرها ملجأ لمعطوبي الفكر : تلفزيون، ولعب الورق، والخمر . في النهار يبيع بالونات الأطفال في البولفار، وفي الليل يقرأ روايات الكلاسيكيين الروسيين، والفرنسيين، والإسبانيين، والانجليزيين . نبيذه أبيض رخيص، وتبغه مُفَرَّى (مفروم) . قبل النوم يشرب من زجاجة يملؤها بالماء ممزوجا بعصير الليمون . لا يحب أن يناقش أي شيء بعمق . ان حكمه على الأشياء يقتصر على أن لا شيء سيء كله، ولا شيء جيد كله . لا يحب الذين يحللون الأشياء من العسل إلى الرماد .

أغبطه على وحدته . يكاد يكون الوحدة ذاتها : الموت الصحو . كان قد جاوز السبعين، ومن حسن حظه أنه لم يكن يعاني من أي مرض . مصارعة الثيران انتهت، في رأيه، بموت خوسيليتو، ومانوليتي . يحب الخوطا الأراغونيسا، والفاندانجو، وطانجو كارلوس غارديل، وكونشا بيكر، رغم ميلها إلى حكم فرانكو . نشرب معا، أحيانا، زجاجة نبيذ في كوخه المُغبرّ . السيدة خو سيفينا، صاحبة الفندق، هي التي تنظف الغرف بنفسها، لكنه لا يتركها تدخل كوخه إلاّ لتغيير الأفرشة . يعتبرها فضولية، وسليطة اللسان، ورائحتها مُغْثية .

---

(1) إشارة إلى آخر قصيدة للشاعر كتبها في سجنه : (مناغاة البصل) وهي مهداة إلى ابنه الرضيع على إثر استلامه رسالة من زوجته تقول له فيها بأنها لم تعد تأكل سوى البصل والخبز .

ربيعة تزوجت بضابط في الجيش المغربي . تعاشقا في طنجة . كنزة ترقص في ملهى الكتبية .

انتهى في طنجة زمن الدعارة الجميل . المواخير الخاضعة للرقابة الطبية منعت منذ سنوات . دور سرية، وفنادق حقيرة حلّت محلها لتمارس فيها المحترفات الهرمات مهنتهن مع الوافدين من البادية، بحثاً عن عمل، وفقراء المدينة، بأبخس الأثمان . بعضهن تُبْن، إنقاذاً لكرامة شيخوختهن ودينهن فصرن يعملن في المطاعم، والفنادق، ومنازل مُحْدَثي النعمة . لقد نَمَت لبعضهن شوارب خفيفة، أو زُغَيْبات متفرقة خشنة وتساقطت أسنانهن . قليلات هُنّ اللواتي اغتنين بدعارتهن فاشترين دوراً وأراضي أيام عودة الأجانب إلى بلدانهم فتقاعدن في نعمة . والأخريات الأكثر شباباً وجمالا، هاجرن إلى إسبانيا، وفرنسا وبلجيكا، وهولاندا وألمانيا . . . وفي أواخر الستينات كان جيل جديد من المحترفات الشابات، المتحررات في لباسهن، وتعابيرهن، وأوضاعهن الجنسية، قد اكتمل نمو أجسادهن واستوى غزين المدينة مثل الجراد، جئن من كل المدن . إنه جيل الفنادق الفخمة، والعلب الليلية، والمخدرات (1)

كنت أقرأ أي كتاب أعثر عليه دون تمييز، لكن كتب الأدب وعلم النفس تستأثر بي أكثر . أقرأ وأكتب في أي مكان مثل هذه الخواطر :

25-9-1961 مقهى سنترال .

«إن المرأة التي أعيش معها دائما إذا لم تجعلني أعزف عن كل النساء فليست هي المرأة التي ينبغي لي أن أعيش معها . ينبغي لها أن تكون هي كل النساء، وكل النساء لسن هي . ينبغي لي أن أميزها في الظلام حتى وإن تكن بين جمهرة من النسـاء . إذا انطـفأت

---

(1) كان للهيبيين الذين وفدوا على المدينة في الستينات دور كبير في انتشار المخدرات على أنواعها .

الشموع يضيء كلانا الآخر . إذا حجبونا بستار سميك أراها وتراني. المرأة النور الخارق . المرأة الشفافة . لم أجدها بعد . »

في الوقت الذي كنت أكتب فيه مثل هذه الخواطر عن المرأة المثالية كنت أستعذب مضاجعة أحَطِّ النساء في البيوت الخفية المتبقية من مواخير طنجة : انحلال الروح في الجسد، هذا ما كان ممكنا لي في هذه المرحلة ، وربما قدري .

سمعت واحدة من هؤلاء تقول لرفيقتها : يقول لي الرجال دائما : "إنك جميلة . . . ! لكني عرفت هذا قبلهم" .

يخيل لي أن المرأة هي مرآة نفسها من التبرعم الأول حتى وَهَن العمر والعجز. انها تبدأ في مراقبة جسدها قبل الرجل . ان الاستمناء والجنس المنحط هما اللذان أنقذاني من السقوط في فخ الحب الخائب. باكراً اكتشفت أنني أحب مزاج العاهرة، لكني لا أستطيع العيش معها. انها تعتقد ان الرجل هو الذي عهّرها فتقضي كل حياتها لتُعهِّره مثلها .

17

العيش في زمن الأخطاء

لنحلم قليلا أكثر . أكثر من الحلم . آه من طائر البقر ! ومن السمكة التي تقود سمك القرش! ومن طائر التمساح ! ومن عصفور الكركدن ! ومن العبد المُقيد إلى مقعده، وهو يجذف، سُساطاً حتّى يدمى ظهره ! اليوم يخرمه الرصاص قبل أن يتشكل له ظل قامته في الشمس أو يتشبح في الليل في فراره .

لا أحد يأتي بعد أن يجيء الأخير . ربما هي السبب في مجيئي الأخير . لقد تركتها تغتصب فيّ ما كنت أريد أن أعرفه فيها . ممن آخذ حكمة اليوم ؟ الأذكياء جنوا أو هم يهذون في الشوارع والأحقّون بالبقاء هاجروا وكبلتهم العزلة بسلاسلها الثقيلة . لقد بدأ سفرهم قبل أن يهاجروا . رأيتهم يشربون الكؤوس الأخيرة . حفنة من تراب الوطن رأيت أحدهم يحملها في كيس صغير كحرز . ربما سيسمد بها بذورا ما في غربته القهرية ! قد يغرس فيها جذور

النعنع . إنها مشيئة البؤس في وطنه . كان يقول لي بينيتس في أصيلة: ستأتي الأزمنة الرديئة. لكن متى كانت هناك أزمنة جميلة ؟ أقول له .

لمن هذه الأنغام الحزينة التي أسمعها من بعيد ؟ إنها للراحلين في الجمارك وهم يزحفون واقفين . بطء زحفهم يذلهم حتى نخاع العظام . إن مذلة الوطن أقسى عليهم من مذلة الغربة . سمعت أحدهم يتنهد ويقول : إن هذا الليل سيدفننا هنا . كأنما ذكرى الليالي الماضية، المرعبة، تنبعث كلها من ليل هذا العبور . لقد تعودت على الشمس والبحر . كيف لي ببحر دون شمس ! الضباب، إذا زارنا، نندهش . هل فقدت السماء لونها المرآتي فوق أرضنا ؟ الشمس تضحك لنا قبل أن تبسم للآخرين، لكنهم حجبوها!

كفى من هذا الهُراء . تعلم كيف تحلم بالعوالم الأخرى، كما أصحابها يحلمون بها . لا تُغَمّضِ الأشياء . كثيرا ما يتغذى الصالح بالطالح . وجوه لا توحي لك بأيّ إحساس تحبه، لكن لا بدّ من رؤيتها .

لقد سحقتنا الحانات الجديدة في هذه المدينة . وجوه لا توحي لك إلا بالمشاكسة والغباء . أصحابها أفظع من زبائنها . يا حسرة على مدام ترودي، والصرصار، والباراد. (1) لم يكن أحد يتسول فيه كأسه . كان مثل (الشجرة التي تُغَطّي كل الغابة) . كان المركز، أما اليوم فحانات ممسوخة وأربابها أمسخ منها . ساعة الرغبة تقترب . قد توحدنا، لكنها ما أكثر ما تبعدنا حين نريد أن نلتقي أو نتماسك على الأقل . أحسني، أحيانا، مثل ثور المصارعة الذي يخرج من نفق الظلام إلى النور لينطح الهواء، ويشحذ أماميتيه وخطمه في

---

(1)PARADE

الرمل مبددا صدمته قبل أن يبدأ صراعه مع قدره المحتوم . إنه العيش في زمن الأخطاء . لقد تلوثت بليل الشارع. حتى مجانينه اللطفاء تصومعوا. صاروا عقلاء ! استطالت لحاهم ! ليس بدعة في حياتهم لكنما استسلام . ليل البيت البعيد . هذا ما أشتاقه . ليل الجنين إلى الشارع . ليل الحلم بالأسفار البعيدة . أن أغترب ولو في ضاحية من المدينة . اتربي واغبرّي يا طريقي الملساء . كل الأمسيات والصبحيات تنتظرني هناك .

سكنت في فال فلوري VAL-FLORY قريباً من مدرستي. سأكتب عن مزعجات المدينة . سأكون ضدها . ما قد يُنْشي من بهجتها ينعدم في ضجيجها . زمن طويل لم أرَ فيه الشروق، وطراوة الصباح، ونداوته . سأستيقظ على الأنسام أو العواصف أو الفيضانات . لا يهم . سأكون هناك . أيها الطيف الذي لم يعد طيفا إلاّ فيما لم أعد أقدر على تخيله . هيا نحلم قليلا أكثر، أكثر من ذكريات طفولتنا، سعيدة أو شقية .أكتب ما أمزقه في يأس . يعجزني جمال التعبير . كيف تأتي الكتابة ؟ إني قزم نفسي . إيموزار، إيفران، وبحيرة «ضاية عوّا»، بعيدا عن أثرياء الصدفة . هؤلاء يبعثرون أموالهم عند أقدام اليائسات من النهار . أملهن في احتراف الليل وما يأتي به من خيرات، لكن أخطبوطهن هو المستفيد. هم وهن عزاؤهم في الليل . حسب قوة الليل يكون زواج أو طلاق . أفكار هم مثل ثياب عرقهم . أيتها الأفراح التي لا مكان لها في تلك القلوب الجليدية، تعالي نتدفأ . لنحلم قليلا، أكثر من الحلم .

حينما يملأني الليل بين المباح و المحرم أتوزع . لو أنني مثل زهرة لا تتناسل، لو أنني أخلق نفسي من ذاتها، لو أنني أعطي لها مصيرها، لو أنني ألغي كل ماهية، لكن كل عاطفة هي عاطفتي . إنني سليل العواطف القطيعية . سليل امبراطورية الحواس . سليل

النملية والسمكية . تَفَرَّدْ تَرَ مصيرك . أهي كل رجولة وليدة طفولتها؟ أهي مرتبطة بها ؟ أهي طفولتي في رجولتي ؟ طفولتي مجروبة . من يقترب من رجولتي إذن ؟ لكأني ولدت بين زهرتين لا أحب إحداهما .

ذهب بعضهن . جاء بعضهن . بمن أتعطر ؟ لم تعد تأتي إلاّ من لَوَّثها لُعاب آخر الليل . أتذكر الأخيرة . كانت مجنونة ، لكنها شربت من ينبوع الهُدوئية المسحور . على ظهرها ذيل طاووس من الوبر الأشقر . جاءت مع الغروب ، وذهبت مع الشروق ، وتركت في يدي كومة من النَّوريات ولم تعد . ربما لم أعرف كيف أقبل ساقها الجميلة . ربما كان ينقصنا الصمت الموحي . ربما كان ينقصنا الكلام السخيف . ربما كان ينقصنا العنف . ربما كان ينقصنا أن نتباعد : أن نتماس ولا نتواجه . ربما ما كان لنا أن نتلاقى أبدا ونتعارف . ما أذكره هو أنها كانت مثل طفلة مدللة : لذتها هي أن تطعمها في فمها أو تخبط الأشياء في وجهك . كنت أفتقد هذا التدليل . لقد عشت مع برابرة الليل في الدروب الضيقة ، والحظائر المغثية ، والخمارات المُريبة . إن زهرتي الأثيرة تذبل قبل لمسها أو شمها . الأسرار المقدسة لم تعد ترعبني : شهواتي هي في السر الذي أعيشه . إنها ، ربما ، جريمة لا يعاقبني عليها أحد . لا أستطيع إفناء شهواتي في جسدي . الموعود رهان زائف . لن أنتظر من يجازيني . الأرز : الإعتدال ، الخبز : الصبر ، الحب : الملح ، لكن جنون الطبيعة لا المعبد .

صرت أحب ، في حيّ ڤال فلوري ، ليل بيتي لا ليل الخمارات ، صباح الجبل والبحر لا صباح الشوارع اللاهثة ، والمقاهي التي تنتظر أول المستهلكين . إن الصدأ يرعبني .

لا ينقص هذا الليل المشجر ، المعشوشب ، إلاّ ذئاب البراري في تناديها. عرفت هاينريش هايني قبل أن أعرف رامبو ، فرلين ، نرفال ،

بودلير، شيللي، كيتس وبيرون . عرفت " أنا أحب، إذن فأنا أحيا " ، عند هايني، قبل أن أعرف " أنا أفكر، إذن فأنا موجود " ، عند ديكارت . ثم جاء سارتر فأيقظ فيّ مفهوما آخر : " أنا ما هو أنا، وليس أنا ما هو أنا . "

لي دائماً موعد صارم لتمزيق ما كتبت. اعترافات روسو علمتني أن أجد عزاء في امتلاك الأشياء الصغيرة التي يهملها الآخرون. لكن انحلال الروح، في الجسد، كان مسي المرضي، الغلاب.

طهرت بالنار آخر ما كتبت في فال فلوري وعدت إلى غرفتي على سطح فندق لابالاتا LA PLATA لأغوص في تلوث المدينة. بدأت أبيع كل يوم مجموعة من الكتب بأي ثمن وأسكر . أخذت لنفسي إجازة مرض . لم يبق عندي سوى " أوراق جديدة FOLLAS NOVAS : لروساليا دي كاسترو ROSALIA DE CASTRO وديوان المعتمد بن عباد.

ذات ليلة أعلنت إفلاسي : الجسدي والمعنوي ينهاران . كنت في مقهى براسوري دوفرانس . لست أدري لماذا كنت أصرخ لاعناً الفراعنة . هددت الحاني بكسر واجهة الزجاجات إذا هو لم يناد على رجال المطافىء، لكنهم جاءوا . شربت آخر كأس قبل أن أصحبهم.

سمعت الحاني يقول للنادل :

– مسكين، لقد جننته الكتب .

– رأيته ذات ليلة نائما فوق عتبة قبالة حانة مونوكل متوسداً كتبه . الله يكون في عونه .

18

المنسـيون

في الحجرة خمسة أسرّة . في الليل، من بعيد، نباح ونقيق . أقرأ حياة فان خوخ . بدأ بالحلم وانتهى باليأس . في الجنون لا أرض غير السماء الوهمية نتعلم فيها كيف نطير بأجنحة مقصوصة . الهدوء شامل . فجأة بدأ اللغط يعلو ويقترب من حجرتنا . هزة أرضية . هكذا قالوا . لم أشعر بشيء . ربما غفوت حينما حدثت . دخل مرضى، من الحجرات الأخرى، حجرتنا . استيقظ رفاق حجرتنا تباعا، كل حديث عن الله، والدين، والكوارث الطبيعية يتزعمه يوسف حجرتنا في التفسير والتأويل . يحفظ القرآن والحديث . هو أيضاً يقولون عنه إن القراءات السبع هي التي خبلته . قال :

- " إنما يخشى الله من عباده العلماء . " الموت هو الحق الأكبر .

قال منصور :

- يوم فوق الأرض خير من ألف يوم تحت الأرض . ألف عام من الحياة حتى يلعنها الإنسان .

قال عمر :

- كفانا من أخبار الأولين والترهات . هاتوا الخبز ، والماء ، والسجائر .

لا أحد أعطاه شيئا فلعن يقظتنا وغطّى وجهه بالبطانية . قال يوسف :

- الناس عصاة مثل آبائهم وأجدادهم . الألم هو العدالة المنصفة . ليس أسعد الناس أقربهم إلى الله ، وأشقاهم أبعدهم عن الله .

كان شاب لا يكف عن الصراخ :

- اقطعوا يدي ، هاهما ، اقطعوهما .

قال يوسف :

- الزمن هو الهلاك . زوروا الأحياء بنفس الزهور التي تزورون بها الأموات . إن زهور الأفراح هي نفسها زهور الأحزان . لقد صارت قلوب الناس مثل الفراشات حول الزهور الذابلة .

عندما نخرج إلى الساحة المعشوشبة يغني لنا أبراهام أغنيته :

في الأرض وفي السماء يحيا الحب
في الوطن وفي المنفى يحيا الحب
في السجون وفي المعابد يحيا الحب
في الأكواخ وفي القصور يحيا الحب
في الحواري وفي المقابر يحيا الحب
في البيوت وفي المستشفيات يحيا الحب
في السلم وفي الحرب يحيا الحب

كان منصور جالسا إلى جانبي يشم نبتة بجمال طفولي :

- ليس سهلا أن يجنّ الإنسان ، وصعب أن يعقل حتى لا يجنّ .

قال يوسف :

- في عقول الناس أثقال ، وأجسادهم حميرها . لقد رأيت حمالا يثقل عربة حماره بكيس تلو الكيس حتى انهارت العربة وانهار الحمار . كان يريد أن يقتصد في العودة إلى الشحن . خطوة ، إنها خطوة ، لكن من يستطيع أن يخطوها . إن كل إنسان يتخيل أمامه هاوية وهمية . نسقط قبل أن نخطو . ما أطول الأشجار ! ما أقصر الإنسان! إن سرّ العمر في سرّ النموّ .

عدنا إلى حجرتنا بعد أن أخذنا حصتنا من الشمس ، ومن الهواء النقي ، ومن النظر إلى السماء . دخل أبراهام . لا ينشرح إلا إذا أعطاه أحدنا شيئا يأكله . أعطيته كسرة خبز ، وزيتونا . إنه لا يشبع . أنا أيضا أستلذ هذه الفاكهة المقدسة . أبراهام يبلع أكثر مما يمضغ . لا يكاد يمضغ . إنه طويل ، بدين. في الليل يتناوبون عليه . لا يشكو إلا إذا اغتصبه أحد بالضرب . يتقاحبون معه عندما يأتون بكلبة المستشفى الصغيرة ويجعلونها تمصّ له أسفله المطلي بشيء من الأدام . سأله منصور :

- ما اسم حبيبتك يا أبراهام ؟

كثيرا ما يتحدث عنها دون أن يسأله أحد .

- استر. ESTHER

- كيف كانت عيناها ؟

- من أجمل العيون

- أما زالتا جميلتين ؟

- نعم .

- تكذب ياأبراهام. إن الزمن يعمي. أما زلت تحبها؟

- نعم.

- تكذب يا أبراهام . الحب أيضا يموت . إنها مع رجل آخر أو هي ماتت .

قال يوسف ملاطفا لحيته :

- الإنسان وحيداً قديس، ومع امرأة شيطان . من يحصي أيامه هو كمن يحصي نبضات قلبه، ومن يتحسر على زمن جماله هو كمن يقود سيارة ملتفتا إلى الخلف . إن أجمل ما في العالم يتدمر ويتلاشى . هذه هي الحقيقة التي سمعتها من أبكم . يا حكيم الشفاء لماذا أنت مصاب بالبرص . . . ؟ يـــــا طبيب العيون، لماذا أنت أعمش . . . ؟

بين جناح وجناح هناك طيران .

نقلوني إلى جناح آخر خاص بالموظفين وذوي الإمتياز الإجتماعي بعدما فرغت حجرة . بعض المرضى يتسللون من القاعات إلى هذا الجناح الهادىء . بدأت بعض حاجياتي تختفي عندما أكون غائبا : كل ما يؤكل ويشرب ويدخن يختفي، كله أو بعضه . حتى زجاجة المرتيني اختفت من حقيبتي . كان يسمح لي بالخروج من المستشفى فأذهب إلى المدينة لشراء ما أحتاجه. الكتب، والمجلات، والصحف لا يمسها أحد . ذات مرة فاجأت مريضا يلتهم طعامي الخاص الذي يجلب لي من خارج المستشفى فقال لي :

- تعال تأكل معي، إنه لذيذ .

شكرته وتركته يتم وجبته الشهية : دجاج بلدي بالبصل والزبيب. تركته يأكل حتى العقبة (DESSERT) : موزة وبرتقالة : وبعدها طلب سيجارة.

الدمناتي هو أقوى مريض في المستشفى . منذ أكثر من عشر سنوات وهو هنا. كان يعمل في سيرك ألماني حاملا في عرضه البهلواني ستة أشخاص فوق جسمه، لكنه ليس هو الأقدم هنا في المستشفى . إن شامة أقدم منه : خمس عشرة سنة . حبلت في المستشفى ثلاث مرات . لا أحد يعرف مع من . عندما تزورها أختها تقابلها باللعنات باصقة عليها، رافضة الكلام معها . أعيد المزميزي،

هذا الصباح، إلى المستشفى معصوب الرأس، وفي وجهه جروح .
إنه يدخل ويخرج متى شاء . أكثر من خمس سنوات وهو يستشفي .
ليس عنيفا أو عدوانيا مع الناس . إن جنونه العنيف مع الأشياء
المنكسرة، أما الحيوانات فهي عزيزته . هو الذي يعنى بكلبة
المستشفى، بغسلها، وإطعامها، تلطيفها وإلعابها.

عندما يقضي أيامه في المدينة ويملّ منها ينطح إحدى الواجهات
الزجاجية الفاخرة . وحينما يبلغ منتهى هياجه ويأسه يمضغ قطع
الزجاج، وشفرات الحلاقة، وسيموت بهذا المضغ عندما بلعه . في
هذه الحالة يكون قد شرب الخمر، ودخن الكيف، وتناول
المسكنات. في تصرفاته يعكس جميع حالات عالمه على الآخرين .
إنه لا يعيش مأساته وحده كمعظم المرضى هنا الذين صنعوا لأنفسهم
عالمهم الخاص الذي يتألمون فيه وحدهم . ما أشدّ قسوتهم على
أنفسهم ! المزميزي يعتبر المستشفى مسكنه الحقيقي . لا يزوره أحد .
له من الرفقاء هنا أكثر مما له في الخارج . هناك مريض حمال، في
محطة القطار، لا يدخل المستشفى إلا في الشتاء، لأنه يكون في شبه
بطالة . هو أيضا لا أحد يزوره .

من أجل وضع حد لما يختفي من أشيائي جعلت الدمناتي حارساً
على حجرتي . يجلس قدام الباب متصفحا مجلاتي، وصحفي،
مدخنا سجائره التي يلفها بنفسه . أشتري له علبة كل يومين أو ثلاثة
وأعطي له بعضا من طعامي . أحيانا يأخذ كتابا ويتظاهر أنه يقرأه
صفحة صفحة، متمتما، رغم أنه لا يعرف حرفا واحدا . طلب مني
يوما أن أقرأ له جهراً . وبعد فقرات أوقفني :

– أنا أيضا كنت أقرأ هكذا عندما كنت في المسيد (الكُتّاب)

عندما تعوده أمه البائسة مرة كل أسبوع أو أسبوعين يحتفل بعيد
ميلاده معها . يجلس على ركبتيها كأنه طفلها الصغير ويغمر
جبينها، ورأسها، ويديها باللثمات . يعود إلى مقعده لحظة أو

لحظات ثم يعيد الكرة . إذا مرّ أحد المرضى الجدد وأطال النظر إليهما يكون عقابه لكمة قوية على وجهه . غالبا ما تسقطه، اللكمة المتعطشة، في إغماء . المرضى القدماء يحذرون من هذه الغيرة المجنونة . يكون عقاب الدمناتي يوماً أو يومين حبساً منفرداً في جناح الخطرين . منذ دخلت المستشفى أنقذته مرتين : عشرة دراهم في كل حبس لرئيس الممرضين .

حتى نوع من الدعارة ممكن مع بعض المريضات، بالدراهم أو بما تحتاجه من لا يكاد يعودها أحد . لا يخلو المستشفى من عاهرة محترفة أو أكثر . في ليلة جُنَّ الدمناتي بحراسة المراحيض . أول مرة يفعلها . يمنع المرضى من دخولها بلكماته القوية . الحارس وممرض الدوام الليليان في غياب داخل المستشفى أو خارجه : نائمان أو يلعبان الورق . في الصباح تقيأ كل من لم يقو على شم الرائحة الكريهة في الثياب، وفي الأفرشة، وجنبات المستشفى . هذه المرة تلقى الدمناتي شحنة من الصدمات الكهربائية لتسكين هياجه، وحبساً منفرداً يومين . في اليوم الثالث خلصته منه، كالعادة، بعشرة دراهم . إن هذا النزوان العصابي لا يحدث له إلاّ على فترات متباعدة .

نزعت من مجلة البلاي بوي صور الفتيات العاريات وزينت بها حجرتي . قبالتي شباك صغير يطل على رحبة معشوبة تتنزه فيها المريضات في فترات الإستراحة . يثرثرن جماعات أو مثنى مثنى، أو في انفراد . يمشطن، يتفالين (1) وإن لم يكن فيهن قمل . إنهن مثل القرود في بعض حركاتهن . عندما يحتدّ النقاش بينهن يتكاشفن عوراتهن، يتقابضن ويتجاذبن الشعر، ويتخامشن ويترافسن . إذا كان العراك بين اثنتين فإن الأخريات لا يتدخلن لفرقهما، لكن إذا لم تأت الحارسة في الوقت المناسب فإن الإشتباك قد يمتدّ إلى الأخريات

(1) يفلي بعضهن البعض

بدافع عدوى الهياج . خلال الأشهر الأربعة التي قضيتها في المستشفى رأيت مراراً مشاهد العنف بينهن من أجل أشيـــاء تافهة : طلب مشط ، تزاحم على مكان مغين ، أو مجرد نظرة متبادلة . «اشعندك كتشوفي في !؟ »واحدة منهن تنزوي دائما وحيدة . تتعرى من كل ثيابها وتمشط شعرها في شرود . تأتي لابسة خجولا وتطلب مني ، من خلال الشباك ، سيجارة . أعطيها اثنتين أو ثلاثاً حتى لا تعود . لا أريد أن أحرمها من عريها ، وحلمها ، وشم زهرتها ، التي لا أعرف من أين تأتي بها .

في الليل يكون للحياة شكل آخر في المستشفى . فئة من المرضى لا تكاد تنام . يحدث للبتول أن تجيء عندي ليلاً منتحبة أو مجنونة بالفرح . تجيء في منامتها الشفافة . قصيرة ومكتنزة قليلا . شعرها مقصوص . وجهها غلامي . بشرتها قمحية . تعاني من عصاب العقم . تخشى أن تجنّ . " أنا هنا ، لكن ليس هذا مكاني ، " هكذا تقول بحسرة . تشرب وتدخن بلذة لتسكين توترها . عندي لها دائما كأس أو كأسان وسجائر ، . خلعت ذات ليلة ثيابها وقلدت صورة فتاة عارية على الجدار في وضعها المغري .

- هل هذه أجمل مني ؟

- كلا ، لكنك لست مثلها ، وليست هي مثلك .

أضع لها موسيقى مرقصة تطلبها فترقص مداعبة جسدها الجميل في غنج هوسي . تخلع بعض ثيابها في دلع. تتلوى في السرير مثل صل . تغازل وتغازل جسدها راقصة حتى يتعب منها الرقص فترتمي على الفراش ساكنة . يحدث لها أن تبقى حتى قبيل الصباح أو تغادر دون وداع . وجودها كله متعلق بطفل لا تستطيع أن تلده .

ذات صباح استدعاني الطبيب مونساراً إلى مكتبه :

- إن حالتك المرضية لا تقتضي البقاء هنا أكثر من أسبوع ، وبقيت تقريبا أربعة أشهر . لقد ارتحت بما فيه الكفاية . ليس عندي

هنا فندق، ينبغي أن تعود إلى عملك .

كانت البتول قد رقصت وغنت بصوت عال ليلة أمس . جاء ممرض الدوام والحارس الليليان وأعاداها إلى قاعتها . ممرض الدوام أيضا يضاجعها . لقد بحثت عنها ذات ليلة فوجدته فوقها في مغاسل الثياب . قال:

- عندما أنتهي فهي لك .

دسست له في يده عشرة دراهم ونبضه يتباطأ فوقها.

19

ســـــارة

جاءت سارّة من العرائش إلى طنجة بعدما زهد فيها الجنود الإسبانيون وبعدهم المغاربة . أمها يهودية تزوجها إسباني، لكنها لم تتخلّ عن دينها وإن لم تكن تمارس شعائره . شباب أمها لم يخل، أيضا، من طيش وزنى . فندق أرْكاديا هو كل ثروة سارّة . باعت أساورها، وخواتمها، وسلسلتها الذهبية، لتشتري رسمه التجاري . عَوَّضت حليها بآخر زائف .

يجاورَني هينينج سكرام. HENNING SKRAM كلانا يترك بابه منفرجا، أنا أنتظر حظي في امرأة، وهو في رجل . إنها الرغبة المفاجئة التي قد يجود بها، على أحدنا، ليل الممرّ . إنه الليل: ليل طنجة.

هو يقرأ المسرح الكلاسيكي وأنا أفترس أي كتاب . ما أكثر ما أعاد عليّ أدواراً كان يمثلها، في الدانمارك، منذ أكثر من عشرين سنة.

لا أفهم كلمة واحدة، لكنني أنفعل لصوته وتشخيصه . ذات ليلة ركع، في دور، ولم يقم إلاّ دامعا .

إذا خاب انتظارنا ننضم في غرفتي أو في غرفته . نتقاسم باطِية نبيذ . عاطفته جدُ رهيفة . في الأيام الصاهدة يحتفل بعُريه الكامل أمام المرآة . في عَيد ميلاده الخمسين تَهَوَّسَ بين الضحك والبكاء . شرب حتى فقد حذاءه . حملناه مُغَمغماً مثل طفل : "دعوني، دعوني وحدي يا أولاد الزانيات" .

إنه عيالٌ على خالته . تركت له مَعاشاً شهرياً يستطيع أن يعيش به في طنجةَ أو في مثيلتها حتى مماته . الموت يرعبه . وجدته يبكي في غرفته لأن جنازة مرت قدام الفندق . (في نهاية عام ستين فاجأه نزيف مخي في مليلية فمات ودفن هناك) .

قلت له :

- لكي نقهر فكرة الموت لا ينبغي لنا أن نتصورأنفسنا ميتين . إنه مصيرك مع نفسك . لا يخص أحداً ولا تنتظر من يؤاسيك. اعتبر نفسك خالداً ولو في الوهم . لا يقهر الموت إلا حب الحياة .

خَفَّ حزنه ولطمني بسخريته :

- انك تعتبرني ساذجا. هل تعتقد أننا في المسرح؟

أيضاً لا يعرف هينينج كيف يمرض. أقل ألم يجعله يرتجف.

نتغدى ونتعشى خمسة أو ستة من المقيمين الدائمين في المطعم الصغير - المطبخ. طباختنا للاّ الصافية تخدمنا. حين يروق مزاج سارة تخدمنا بنفسها وتشاركنا مائدتنا. أمها لولا (اسمها الحقيقي حسيبة) لا تشاركنا أبداً في شيء. تظل قابعة في حجرتها المظلمة. أحيانا تلعب الورق وحدها. لا يكاد يزورها أحد.

انضاف إلى مائدتنا شخص أراه في مقاهي السوق الداخلي. لا أعرف ماذا يعمل. يختال في مشيته. ربما ليُوحي لمن يراه أنه شخص مهمّ. إنه صديق عشيق سارة الأسود بوتامَي : سليل الكوريلات،

بجسده الضخم، ووجهه الشبيه بنصف بطيخة حمراء، وجبهته الضيقة مثل زنجانتروبو (1)، وعينيه كأنّهما حبّتا عنَب سوداوان.

لا يقيم، هذا الوافد الجديد، في الفندق. مضت أيام دون أن يعرف كيف ينسجم معنا. ننكت ونضحك وهو متجهم. فكرت: أهو ينتظر منّا أن نسليه؟ ذات ليلة انتهينا من العشاء، ونحن نشرب، فأخذنا نتنافس في النكات. تعالت قهقهاتنا الى حدّ الدموع فإذا به ينتصب ويخرج غاضبا. طزْ! ماذا حدث لهذا الكونغورو؟

في اليوم التالي كان أول من دخل المطعم. وجدته يتصفح مجلة فرنسية وأمامه شيء ملفوف في ورقة جريدة فرنسية. حييته وجلست. حيّاني بهزة من رأسه ثم أطرق من جديد. فكرت: يمثل دور المفكر والمهتم.

طز! كدت أنفجر ضاحكا. للاّ الصافية مضطربة على غير عادتها. باب المطعم يواجه حجرة لولا. تنام هناك سارّة معها عندما لا يبيت كوريلاّها في الفندق. بانت واستقدمتني باشارة يدها. شيء غير عادي يحدث هذه الليلة. أدخلتني الى الحجرة.

– ماذا فعلتم له؟ إنه شرطي سرّي وصديق بوتامي.

– وبعد!

– إن ذلك الشيء الملفوف في ورقة صحيفة هو مسدسه. لقد رأته للاّ الصافية يخرجه ويمسحه.

– لا أفهم شيئاً. وبعد، فهل جاء ليهددنا؟

– كلا، لكن لا تغضبوه، أرجو أن يكون عشاؤكم هادئا حتى تعتادوا على حضوره.

– أو يعتاد هو على حضورنا

– أرجو أن تفهم ما أقول: لا أريد مشاكل.

سارة هي من النوع الذي يقطر بولاً أمام السلطة.

(1) ZINJANTROPO

الحارس العجوز، دون خوان، جالس في رُكُن عند مدخل الباب. يعجبني تمرده: ليس لديه ما يربح ولا ما يخسر. أشار بإبهامه الى الخلف مُدَوّراً سبابته حول صدغه. إنه دائماً ينتقدها، ويخلق نكتة جديدة حولها.

قال مرة بسخريته المرحة، وهو يتعشى معنا:

- كأن الدجاج لا أرجل له. إنه دائماً يطير!

في صحنه جناح وعنق. أكثر من عشر سنوات وهو يعمل عندها.

حول المائدة: بوزيان، أستاذ الانجليزية، وهينينج سكرام، والشرطي وأنا. دون خوان لا يتعشى معنا عندما يكون مهموما. ينتظر حتى يفرغ المطعم. سارّة تطل علينا وتختفي. مضطربة. تنتظر ما سيحدث. للاّ الصافية أكثر اضطراباً منها. لم تر أبداً مسدّساً عارياً في يد إنسان. " كان يمسحه مثل نظارة. " هكذا قالت لي. لَفّنا صمت غامض عَلى غير عادتنا. هينينج لا يعلم شيئاً عن المسدس الملفوف. سارة تصبّ لنا النبيذ في كؤوسنا ثم تعيد الزجاجة الى المطبخ. طلب لنا هينينج زجاجة أخرى لتبديد صمتنا البارد. انه هو أيضا يشك في شيء ما يحدث هذه الليلة. واجم. ربّما يفكر الآن في عشيقه بيأس: تَجافَيا منذ أيام. حبه في حزنهَ أكثر منه في فرحه. صبّ للشرطي راعش اليد، ثم لنا. تماست كؤوسُنا في رنين. خَفّ اضطراب اللاّ الصافية وسارّة، التي أطلت علينا في بشاشة مُغْتَصَبَة. لست أدري لماذا يأتيني شَبَهُهَا بالنّعامة! ألأنّ عنقها طويل؟ ووجهها الذي يشبه قَلْباً؟ طلب الشرطي زجاجة أخرى قبل أن تنتهي الحاضرة. يريد أن يتلطف. سحب، في خلسة، ملفوفه ووضعه في جيب كبوطه.

بوزيان خلق لنفسه أيضاً قصة حب مع تلميذة. غداً دوره في الدعوة. لم يتكلم معها أبدا. حبّ النظرة من بعيد. مرتين في الأسبوع، يبدأ درسه في العاشرة. يسافر، في هذين اليومين، الى تطوان، في السادسة صباحاً، ليعود بعد ثلاث ساعات. يتناول

فطوره في مقهى أڤينيدا دي إسبانيا، الذي تمرّ أمامه معشوقته. بلذة يراها ولا تراه. إذا هو عاد فاتراً وشارداً فإننا ندرك أنها لم تمرّ. في هذين اليومين، مرت أو لم تمرّ، يستضيفنا الى زجاجة أو اثنتين، أثناء العشاء. لا يشرب إلاّ في المناسبات. لا يعرف كيف يشرب وحده: شرب الخمر حالة اجتماعية كما يقول.

حوالي الواحدة بعد الزوال كان هناك سُلَّم، ورجال السلطة، والمطافئ، وجمهرة متهامسة. لقد كسروا النافذة لفتح الباب من الداخل. وجه سارّة شاحب وراعش. الهلع شوّه ملامحها. إنه استغراب تام من الجميع، الذين عرفوها هنا، أن تنتحر شاستين. لقد ودعتنا جدّ مسرورة. تعشت معنا جيداً وشربت حتى احمرّ خداها. أذكر بسمتها الأخيرة وهي صاعدة في الدرج الى غرفتها. أيّامٌ وكُلُّ طعامهاخبز مغموس في النبيذ. تُقَضّي مُعظم أوقاتها تقرأ. تأخرت الحوالة، التي تستلمها شهرياً، أكثر من اللازم. أعياها، هذه المرة، انتظار مساعدة والديها لها.

دَعَوْتُهاللعشاء معنا عندما علمت بضائقتها. لا أعتقد أنها انتحرت بسبب الخصاص وحده. لا بدّ أن هناك تَراكُماً من الانحطامات. ربما كان هناك شقاء أعمق، لكن ابتلاع أنبوب من المُسكّنَات بكامله كان أقوى. ربّما فرحها معنا، غير المنتظر، قد ساهم، أيضا، في انهيارها!

بعد نقل الجثة وانصراف السلطة غزت سارة نوبة من البكاء حادة. شاركتها في شرب الكونياك لتخفيف انفعالها. تحدثنا عن المقدور، ومصائر الناس، ناسياً عَملي المدرسي. سكرنا وضحكنا. لا أذكر كيف صعدت الى غرفتي لأنام بكامل ثيابي. أيقظني دقّ متواصل على الباب للعشاء. المطعم كان خالياً من المرح الذي نخلقه فيه في معظم الليالي.

في عطلة مارس المدرسية تضاعف هَمٌّ بوزيان. كان يذهب الى

تطوان في نفس اليومين المعتادين، ويتناول فطوره في نفس المقهى، ويعود في نفس الساعة المعتادة. تلميذته غائبة، لكن نظرته حاضرة. أخذته الى دار برغوثة. كان عندها ثلاث. تركته يختار. دخلت أنا مع فتاة حولاء استعدت معها بَعضاً من ذكرياتي عن أحياء تطوان. سألته في حانة دينز بار عن التي دخل معها. " انها لطيفة، لكني لم أضاجعها، لأنّ قصة احترافها أحزنتني. تعول أمها، وطفلتها في عامها الأول. "

أنا أيضاً أكره هذا النوع من العاهرات اللائي يقحمن همومهن في الفراش.انهن العجز بعينه.

ليس بوتامي هو عشيق سارة الوحيد، لكنه هو الدائم منذ سنوات. ان شبقها يستقدم نَيَّاكين (من النيك) شُبَّاناً من المدينة وغيرها. بعضهم لفقره وكبته، وبعضهم افتتاناً بالأجنبيات، ولو كن هَرِمات مثل سارة.

هذا اليوم جاءها شابها الأثير من شفشاون. أقل من ابنها كارلوس في ثلاثينه. من عادة بوتامي أن يسهر معها يوم السبت، وقد يستمرّ سهرهما حتى آخر ليلة الأحد، وبقية الأيام لزوجته وبناته الثلاث، لكن اليوم هو الاثنين. ربما دلّه أحد على هذا المنافس، الساذج، فجاء ليشمّ مُنَافَسَتَه له. سارة في أزهى زينتها، وأعبَق عطرها. الشاب يتعشى معنا. انه أقرب الى الالتهام، والشره، منَه الى الشهية. لا يشرب ولا يدخن. ولكي تُعَلِّفَه جيداً وتكرمه أمامنا يصير عشاؤنا وليمةً أكلاً وشراباً عندما يجيء. لكنها تُعَوِّضُ ذلك! قيل لي أنها غالباً ما رأوها تشتري لحم الحمار أو الحصان. قد يكون هذا صحيحا، لأن شريحة اللحم تكون، أحياناً، مطّاطيّة. لا يهمني أن أصدّق. إقامتُنا الكاملة عندها من أرخص الأثمان في السوق الداخلي. صعد بوتامي مع سارة الى احدى الغرف الشاغرة. سمعنا لَغطاً وشتائم. مرّ بوتامي أمام باب المطعم غاضبا، مُلقياً نظرة احتقار

على الشاب. دخلت سارّة حجرة أمها. بانت بنظارة قاتمة تُخفي كَدمتَها الطرية. انها عنيدة، حازمة ومجدولة، لا تَنهزم. كأن شيئاً لم يحدث. إنها سيدة حريتها ورغباتها. هي هنا. يختصم من يختصم، ويذهب من يذهب وهيَ سيدة نفسها. يغضبون ويذهبون، لكنهم جميعاً يعودون. إنها سيدة السَّخاء، والمِراح، والنّكاح.

الظهيرة، في الصيف، تخنقني مَلَلاً. لا ينقذني منها إلاّ البحر، لكني تكاسلت عنه وفقدت لذّة السباحة منذ سنوات. ليست هذه هي المتعة الأخيرة التي أبعدني عنها الشراب كل يوم: القراءة الجادة، الكتابة، وكتابة الرسائل الى الأصدقاء، والتأمل، والحلم.... حتى غفوة القيلولة عزفت عنها. ربما لأني أستيقظ منها خاملا في مثل هذا القيظ الخانق. عندي الآن خيارات: أن أذهب عند شارل لوشوفاليي، أوباتريسيا، أو بينيتوجرّا، BENITO GERRA الذي عاد من المكسيك، أو أنزل الى احدى حانات الشاطئ، لكن ثرثرة السكارى هناك، وتعتعتهم ستضاعف هذه الحرارة. عند بينيتو الذي لم أره بعد.

استقبلني حافي القدمين مضخما ترحيبه كعادته. لا ينتظر من يبهجه حتى في أكثر الأيام عوزا في انتظار الحوالة التي تبعثها له أمه

الثرية. تعانقنا بحرارة. أمسكني من كتفي:

– لم تشيخك الخمرة بعد. مازالت في عَوْنك.

– وأنت أيضا لم يَهزُمك المسحوق الأبيضَ حتى الآن (1)

جبته فضفاضة، مفتوحة الصدر. لم يسكن، هذه المرة، في منزل كبير: غرفة واحدة، في حومة بنشرقي، تطل على الشاطئ، وجزء من الميناء، وهضبة الشرّف، ومَحطة القطار. بضعة كتب، وأوراق مبعثرة فوق الطيفور (الطبلية). أخرج بيرتين باردتين من جفنة مغطاة بقطعة من الخيش.

– هذه برّادتي (ثلاجتي).

رائحة الهاش قوية. صحته جيدة. هكذا هو دائما كلما جاء، لكنه سَيَبْتَر، كعادته، إذا هو عاد لِيَشمَّ المسحوق الأبيض، ويدخن الحشيشَ، ويتناول المعجون ويشربَ.

– وڤاليري؟

– تكاتبت معها عندما كنت في لاس فيغاس. تزوجت ولها طفلتان. تعيش مع زوجها في ساحل العاج.

لاأظن أنها كانت تطمح الى أكثر من هذا. لقد تهرأت في الحب الهارب منها بما فيه الكفاية.

– باتريسيا أيضا لها طفلة مع جيوڤاني، لكنها لم تعد تعيش معه، وإن كانا يلتقيان.

– أعرف هذا. لقد أفطرنا معا، هذا الصباح، في مقهى سنترال.

تأملت الأوراق فوق الطيفور.

– ماذا تكتب؟

– رواية. هذه أول تجربتي مع النشر. أُعاني عُسْراً كبيراً في كتابة صفحة واحدة كل يوم. ربما كنت في حاجة الى فتاة مجنونة يلمـــع

---

(1) الكوكايين.

فوق جلدها تَوَتُّري. لا تُسْعفُني الكتابة إلا عندما أتخاصم مع نفسي والآخرين. قلما أكتب وأنا أمرح .

" كل عقل نشيط صادر عن روح منحطمة " كما تقول ألفونسينا سطورني(2).

- وسلما، أين هي الآن؟

- لا أدري. لا أعرف من أنكر الآخر في جلدنا القديم. لم أتم عطلتي في لاس فيغاس لأني التقيت هناك فتاة نسخة منها في الملامح والتصرفات. امتصصت منها ثلاث قصائد وهربت قبل أن أكرهها وأمزقها.

التقط أوراقا من فوق الطبلية ومدّها لي.

النرجسيون

يروق لي أن أتأمل عينيك.
تكادان أن تكونا برتقاليتين،
وشعرك المسبل مثل الكاكا واللامع.
يروق لي أن أتأمل وجهك الوضيء
حين يظهر ويختفي.
أغرقيني
حينما أخرج من حلم وأدخل في حلم.
ان شفتيك اللذيذتين تفرضان حواجز
على فمي المحارب.
العراك هو سلاحي الأثير.
وأحب نفسي.

---

(2) CADA CEREBRO ACTIVO PROCEDE DE UN ALMA QUEBRANTADA

وبعد!
النرجسيون يغرقون أجساما أخرى،
وأرواحاً، بحنان.
أحبك نحو الأعلى، ونحو الأسفل.
منذ عجلة البدء المبهمة، صار محاصرا
جلدك من العصر الحجري.
يتموج متلئلئا نحو المستقبل، لكن روحي
القوية هي أبعد من الاتجاهات الأربعة.
الميعاد هنا.
أينما يروق لك،
ربما في مغارة الفضاء المحكمة السرّ، الكتيمة.
الميعاد هنا.
ظمآنة هي كيميائي المتوحدة.
الميعاد أينما يروق لك.
ربما تفوزين بلقائي.

علبة الوقيد

اليوم طاردتني النجوم.
رميت لها جلدي... شعري...
عينيّ الرائعتين، البنفسجيتين.
عبثا.
لقد نقلتني معها،
عبرت بي قارة من الثلج.
أفْرَغْتُ نفسي.
أنا كلّي تدحرجت نحو الأرياف:

عظام.... نفايات.... جمال...
مرَّ من أخذني معه.
خبأني في علبة الوقيد.
ومن أجل ذلك تَشتعل أعواد الثقاب،
كما يَحكون.

بــخـــــور

يتساقط الثلج.
زرقاء تمطر الغرفة،
ونحن معاً
انسلخ عنّا اللحم.
لم يبق منّا إلاّ العظـام،
إلاّ دخانَ العضوَين صاعداً
في بطء حلَزوني.
في الخارِج، تمطر زرقاء
وفي الداخل، بخورا تمطر.
ونحن شاحبان، خالدان، مُمَزّقان،
دائماً مُنْصَهِرانِ في أثيرِ النشوة المُتلاشية.

21
لوشوفاليي

لا ينبغي لي أن أكون حيث يوجد الصيف. إنه يخنقني وقلّما يُبهجني. لا أكاد أقبض فيه على فكرة حتى أدوخ وتتبخر مثل النّدى المشحون في هواء الليل. كانت لي فيه، في عزّ شبابي، بعض المزايا والمباهج. من اللطف أن لي رمل البحر الطري لا رمل الصحراء الجاف، الصافع والمُعمي. لا أتعلق بالأحلام إلاّ عندما يهزمني طموحي، ولا أتذكر همومي إلاّ عندما أجلس لأكتب.

وجدته جالسا حزينا في رحبة مقهى سنترال. بادرني :

– أحتاج اليك الآن. ستساعدني في مهمة.

لأول مرة أسمعه يستسعد بأحد هنا . العشية تقترب. نهض في تَثاقل وقال :

– عندما نشيخ نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد!

أكتب الآن هذه المذكرات على نشيد السعادة في السنفونية

التاسعة، والليلية الأولى لشوبان. سأترك للقارئ حرية مزجهما في مخيلته.

غرفة لوشوفاليي حارة مثل فرن. زجاجة نبيذ وَرْدّي فوق الطاولة. لا يشرب الماء إلاّ عندما ينعدم النبيذ. الماء للجمال والضفادع، كما يقول ساخرا. ملألي كأسا: انه دافئ وطعمه حامض، وتفوح منه رائحة الفلين. أشار الى حقيبة بالية قرب السرير.

- أرجو ألاّ أزعجك اذا أنت حملتها لي الى الشاطئ.

- الى الشاطئ!

هل بدأ جنونه؟

- لا تستغرب! لكن لن أقول لك شيئاً عمّا فيها حتى ترى بنفسك.

يُبْطئُني، في السير، كلما تخطيته. أبداً لم أره متألما ومُتْعَباً كما هو اليوم. انَه دائما ضدّ " الآي إ" يكاد ينهار، لكنه صامد. الحقيبة ليست ثقيلة. تساءلت عمّا يمكن أن يكون فيها! أشخاص يودّعون مساء طنجة الجميل، آخرون مازالوا متشبثين برمله الرطب. فتحت الحقيبة السحرية الشوفالية: قصص قصيرة قرأ بعضها عليّ منذ زمن. لم ينشرها قطّ، وركام صور لونها حائل، وأوسمة نالها في الحربين العالميتين. طلب مني أن أشعل فيها النار داخل الحقيبة. نظرت إليه في أسى. سأحترم رغبته، هذا أكيد، لكنني أردت أن أنقذ صورة له كي أحتفظ بها فامتنع:

- أرجو أن تلبي لي رغبتي. لا تناقشني في شيء عنها. سنأخذ أكثر من صورة معاً متى تشاء.

الأوراق الفحمية تتطاير وهو ينظر الى الأفق الشفقي مُشرباً بلون زهور اللوز. ذكريات أكثر من ستين عاما تتلاشى دون رحمة أو ندم. وجهه أسيان الى حدّ البكاء. احمرار وجهه يعكس مقاومة انفعاله

الشديد. لأول مرة أرى فيهامثل هذه العدمية. قصصه التي كان قد قرأها عليّ اسلوبها ينعدم فيه الخيال الأدبي. انها مجرد سرد أحداث مأساتية دون جمالية. كل شيء فيها مطبوخ مسبقا وجاهز. لا شك أنه لم يُنَمِّ موهبته الأدبية بمشاعر العزلة، والقراءات التأملية. انه من هؤلاء الذين يسألون دائما ان كان ما يسمعونه أو يقرأونه حقيقيا أم لا. لكن تمرده القوي كان على الزيارة الأسبوعية للكنيسة، وحفلات احياء ذكرى القديسين. لم يعد يستمد بهجة الحياة الا من الماضي: العصر الجميل انتهى في نهاية الأربعينات، رغم كوارث الحروب الكبيرة والصغيرة. هذه هي حسرته. وبعد تقاعده من الجيش أخذ يمارس التطبيب بالايحاء الذاتي. كان مهتما به منذ شبابه. اعتبرته نوعا من الشعوذة، لكنني تراجعت عن رأيي عندما رأيته يعالج سارة أمامي. راح يلقنها جملا ترددها معه، وهو يمرر راحتيه على بطنها، ماسحا وجعها، حتى أنهضها من فراش الأنين والألم. لقد كان لوشافاليي طبيبنا في الأوجاع والأحزان فاذا هو اليوم أوجع وأحزن منا. عندما أصبت بفقر الدم وصف لي " كفتة " (1) الحصان نيئة مع صفار البيض، والثوم، والابزر، والنبيذ. أدركت، من خلال تلميحاته، أننا لا يمكن لنا أن نعيش بالذكريات الخائنة أو المشكوك فيها. ثم هو لم يعد له من يورثها له. لقد تنكر لكل قريب له، بعدما قتلوه وهو حي.

حوالة معاشه تأخرت أكثر من المعتاد هذه المرة. يزداد انهيارا. ينظر منحنيا أكثر مما ينظر مستقيما. هذا ليس من عادته. سمعته يتمتم:

– في بلاد المواعيد يموت الانسان جوعا.

لم أسأله عما يقصد. فكرت، وأنا أفارقه: انه في الخامسة والسبعين. اذا قدر لي أن أعيش عمره تُرَى أية متعة أو حسرة ستكون

(1) اللحم المفروم

لي في العيش! ان عبارته هذه استرجعتها كأنها مسّ. ولكي أقوي وأعزيّ نفسي صرت أقول: لن أشيخ سيئا: " عندما نشيخ نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد! " ما قابلت أحدا في مثل عمره الأ شكا من الزمن الذي جرده مما يحب، أو مرّر حياته حتى النخاع. لكــــــن لو شوفاليي هو أقلّ مبالاة بسوء حظه. صرت أخشى نهاية حياتي من خلال حياته. ما أصعب ألا يقارن الانسان حياته ببعض الآخرين.

مرت ثلاثة أسابيع على تأخير حوالة معاشه. القطرة الصامتة، القطرة التي تكسر الصمت. صار طعامه مقتصرا على الزبدة، والطماطم، والبصل، والليمون. أشركه معي كل يوم، تقريبا، في زجاجة نبيذ رحمة به من الماء الذي يعاف شربه. نظم له المركز الثقافي الفرنسي القاء محاضرة عن العلاج بالايحاء الذاتي، لكن حماسه فتر عندما رأى حوالي عشرة أشخاص في القاعة فاختصر الموضوع الى حديث دام عشرين دقيقة. ماربحه من هذا اللقاء هي الخمسمائة درهم التي أعطيت له مكافأة فأنقذته من بؤسه في انتظار وصول حوالة معاشه.

في تلك الأمسية كان كريما معي في مطعم الفندق الذي نسكن فيه معا: طعام وشراب، أحاديث ونكات حتى طردنا تعب الليل.

في العام الماضي خاب أمله أيضا عندما طلب، في مقهى زاكورة، من العازفة على البيانو وزوجها الكمنجي أن يصاحباه في أغنية من الثلاثينات. ما أن صاح بصوته القوي حتى استوقف كل مارّ أمام المقهى فأوقفه النادل بلطف لأن المكان ليس ملائما للغناء. إنّ واقع لوشوفاليي قد تخلى عنه لأنه يعيش في عالم غريب عنه. انه أشبه بمن يتعلق بغصن وتحته هاوية: عبء ثقيل وحزين. وجدني صباحا، في مقهى سنترال، متلذذا بكسلي. لقد زايلته كآبته. دعاني الى صحبته لزيارة صديقه جورج في ضاحية عَوّامة. ليس لديّ ما أفعله، في هذا اليوم الصاهد. أحسّني فائضا. اشترى أرنبا دجينا،

ونبيذا، وعلبة فطر، وخبز شعير. ركبنا الحافلة العمومية. في المحطة النهائية كان علينا أن نمشي حوالي كيلومتر لنصل الى الغرسة الصغيرة. الطريق لاهبة. حية تعبر في حجم نصف متر. توقف قائلا وكأنه يخاطبها:

- اعبري أنت أولا. أنت الأسبق في العبور. لا تتحرك أنت.

العرق يتصبب منا. جورج يعيش من تربية النحل. لا يكاد يزوره إلالوشوفاليي أو عندما أصحبه. في بعض المرات أشتري منه عسلا. تهلل بالفرح وهو يستقبلنا. الكوخ القصديري، الرحب، بناه بنفسه. حرارته في الصيف خانقة، وفي الشتاء برودته مجمِّدة. كل ثروته الحيوانية بقرة ودجاج. حياته زاهدة. لا يملك من الأثاث الا فراشا، ومائدة، وكراسيها، وراديوا صغيرا. راقني أن أتمشى في ظلال أشجار البرتقال، والأرنج، والاجاص. بعض الاجاصات أسقطها نضجها البالغ. بعضها نقبته الحشرات. أكلت اثنتين مستلقيا تحت شجرتها. لو شوفاليي وجورج يطبخان الأرنب. لقد تعمدت أن أتركهما وحدهما. بينهما أشياء مشتركة عن بلدهما. لوشوفاليي ملحد وجورج متدين لكنهما يتفاهمان. لم أسمعهما أبدا يتجادلان في الدين. غرس جورج صلباناً خشبية في الحقل، وقرب البئر، وفوق باب الكوخ صليب خشبي داكن اللون مثل فزّاعة. لا مكان للشيطان هنا. فكرت: بماذا يبهج حياته في هذه العزلة شبه المطلقة؟ حتى الكتب ليس عنده منها سوى بضعة مجلدات كالحة اللون. لا أثر للمجلات أو الصحف. ربما يغذي نفسه بالتأمل مثل الروحيين والقديسين. انهم هم أنفسهم مواضيع للتأليف. عصافير تطير بين الأشجار. طائر أسود استوى على غصن. بدأ يرتعش. ربما هو طائر الزيتون. (الزرزور). فكرت في ملاعب حيّ عين الخباز، وبساتين كيتان، وحقول سير يمين في وهران. ان الانسان هو كيف ينتهي وليس كيف يبدأ. هذا أيضا أحد

تعابير لوشوفاليي. اذا أزمنتُ فلست أدري أية شيخوخة تنتظرني. أكيد أنني لن أحرق حقيبة ذكرياتي على الشاطئ. انني لم أسمح، حتى الآن، لأية عاطفة أن تخونني. لقد عشت دائما في حالة طوارئ. ما أحببت إلاّ ما كان هاربا: ان الحب، مثلا، لا يسحرني الاّ اذا كان أسطوريا:

أتحدث عنه دون أن ألمسه أو أعانقه. وأكثر الفتيات اللواتي سحرنني هن هؤلاء الهرمافروديات. ربما نزعة لواط دفينة مازالت متحفزة في أعماقي. ان الغلاميات أكثر ايجابية وجاذبية من الأنثويات (المارلينيات والشاديات). ان سلبية أمثال الأخيرات لا توحي ميوعتهن إلاّ باغتصابهن.

لقد بحثت عن لعبة الحياة ورمزها لا حقيقتها: عن الغامض واللغز، لا الوضوح والبساطة، عن المجهول لا المعلوم، عن السراب لا الماء. سقطت قربي اجاصة جدّ ناضجة. تمرغت منقلبا وأخذتها. أكلتها مفكرا في اسحاق نيوتن، وهنري ثورو، وروبرت فروست. فكرت أيضا في اليهودي الذي ألقى بنفسه من الطابق السادس فسقط على عامل مغربيّ، في تطوان، حيث أدخل له عنقه ورأسه في صدره. خارت البقرة وهي تَروث والحسون يغني. لقد نقلتني ظلال هذه الشجرة الى ظلال طفولتي الوارفة: عين القطيوط، عين الحيّاني، وعين الخباز. شربت من عيون هذه الأحياء ماء البؤس العكر -الزلازل.

لم يسبق لي أبدا أن استلقيت مثل هذا الاستلقاء المشرق، المشجر. من قبل كنت أجري تحت الأشجار ولا أتوقف تحت واحدة الاّ لأقطف ثمرها، أما الآن فأنا أستظلّ وآكل من نضجها. ان الزمن لم يعد يوزعني. صرت أحبسه أينما أشاء. انني مدين الآن لصديقي لوشوفاليي. لولاه ما كنت أنتشي بهذا الموج من الذكريات التي تغمرني في منتهى نعومتها، ولينها، وعمقها. تعبي يسيل مني في

هذا الاسترخاء الشامل والبهيج الذي يُسلمني الى غفوة لذيذة.
جاءني جورج بقدح من الفخار مملوء بالنبيذ. انه عتيق في كل شيء
هذا الجورج اللطيف، الناعم في صوته وحركاته. بدأت أشفّ مع
كل رشفة من القدح والسيجارة. أشرقت مراحل حياتي القديم منها
والحديث، الخبيث والطيب، المؤلم والمفرح: انها ومضة متشابكة
مثل أغصان شجرة الاجاص هذه. بدأ نسيم يهب محملا بالابتراد
المنعش .ناداني لوشوفاليي للأكل. يحب الأرانب المطبوخة بالخمر
والفطر. أستلذ دائما طبخه. انه أصيل في بداوته.

22

باتريسيا

جارتي لا أبالي بها لأنها تافهة. لا جنس دون طقوس. أكتب هذه المذكرات في حانة جديدة ممسوخة. انها من الحانات الجديدة التي أُقْحمت على المدينة. هل جاء ليل وداعك لليل طنجة؟

- أبداً لا. ان ليل طنجة هو ليلي. لا يودعها من عاش فيها حتى تأذن له سُرَّتُها. كم عدت اليها مهما كان تناسلها وما أكثر ما سافرت وعدت من نصف طريقي اليها! الحقيقة هي المستقبل. لا أحد شاهد على ما أقول. اني وحيد ليلي. لا أحد يغزو وحدتي.

- بوركوجودا! بوركوجودا! PORKO JIUDA

أنا ستاسيا تبكي. من تَسُبّ؟ من يمكن أن تسبه هكذا في حضوره؟ الصهد خانق. أنا ستاسيا عارية حتى النطاق. ما أجمل عري الطفولة! أفكر في باقة ورد حمراء محروسة بزهور بيضاء مُشربة بحمرة لم تفترّ بعد لُسَيْناتُها . كم تُفرحنا وتُشقينا الطفولة! لا تدوم

الآ في أحلامنا. ماذا يأتي بعدها سوى أن نمارس جنون الليل! باتريسيا جالسة على الحصير. جُبّتها الفضفاضة مراكشية. تُفتت سيجارة شقراء لتصنع صاروخها كما تسميه. أهو إفناء أم إثبات أم تَحَمُّل أم نشوة ما تصنعه؟ ربما احتجاج! ربما حبوط! ربما لا شيء! ملء فراغ! نزوة! يا لليالي الطويلة في ملذاتها وكيتْ جاريتْ يعزف. أمطار توحي لك بالطوفان ولا تغرقك. لا أحبَ تقليد نفسي. لقد ولدت باتريسيا لتبهج الآخرين، لكن كم سألتها! من هؤلاء الآخرون؟ تنظر إليّ ولا تُجيب. تبتسم! تصنع صاروخها خافرة عينيها. جمال كل النساء يجتمع فيها. سكينتها تجعل من كاره النساء محبا، ومن العنّين فَحلا. بسذاجة تقول: الآخرون أيضا يوجدون. أزداد حبا لنفسيَ أمامها. رقص، رقص لكي يجمل العالم. رغم أن باتريسيا شاعرة فاشلة فإنها توحي بأجمل الشعر لمن يعشق حضورها. الفنانون لا يموتون أبدا في الاسطبل.

تَهلل وجه باتريسيا. كفّت أناستاسيا عن البكاء وجاءت عندي حابية.

– جئت في الوقت المناسب. أنا ستاسيا في حاجة الآن الى من يحملها.

أخذتها بين ذراعي. أن تغامر بحياتك هي الحياة نفسها. إن السفر في الطائرة ظل حلمي منذ سمعت هديرها لأول مرة . أكثر أحلامي تَذكراً هي طيراني. غالبا ما يكون طيراني فوق الأحراج وينتهي بالنزول أمام مدخل كهف أتخيلني الوحيد الذي يعرفه. أتلذذ فيه بعزلتي بعيدا عن الروائح البشرية التي سئمت منها وسئمت مني.

نَغْنَغَت أناستاسيا. لاصبر لأمها على تربية الأطفال لكنها تحبهم.

– أكنت تسبينها؟

– أوه كلا. ماذا تقول! لم أكن أسب أحدا. إنها عادة أخفف بها عن نفسي. ربما كنت أسبّني دون أن أشعر. لا أدري!

أول عومة لي في هذا العام. كان البحر يختزن حرارة موسم الصيف كله . هناك ناس لا يصحون الاّ ليمارسوا بلادتهم، وآخرون يولدون بلداء، ويموتون بلداء، ويزعجون الآخرين.

افترقنا حَرَجاً؟ فَضيحة؟ جاء من يثبتُ ما كُنّاه! ان براين جيسن يُؤَسْطِرُ الناس، وكثيراً من الأشياء حتى لا نعرف أهو جاد أم مازح!

سيتشيث Sitges! آه من شَفَقِها، وليل أزقّتها البيضاء! هناك رأيت العاشقين المتعاتبين يقرأون الرَسائل المؤجلَة، غير المرسلة بعد. ماذا يبقى لنا سوى شفق يذكرنا بأشفاق بعيدة أو قريبة!

مصت باتريسيا صاروخها وسألتني :

- كيف تركت الشارع؟

- مثل كل عام : شعارات جاهزة، مراقبة قبل أن ينادوا بها. هذه السنة يحتجون بحدة على تكاثر العمارات. من يبنيها؟ في كل عام يسمحون لمثل هذا العيد العمالي أن يمرّ في سلام. آه من اللُماظة السياسية!

- شكري! انهم على حق. طنجة بدأت تتخلى عن أرضها لتبحث عن السماء الوهمية. كلنا عانينا من الغزو والضياع. لنبدأ من جديد كي نستعيد هويتنا. ان من يصطاد فراشه في الغابة قد تصطاده أفعى سامة، ومن يصطاد سمكة قد يفترسه سمك القرش .

أكلنا كان بطيئا في أعينهم، وأفواههم كانت سريعة في دهشتنا. من رأى ليس مثل من أكل. لا صلة لنا بالعين والفم.

يجتمع في باتريسيا الفرح والحزن، والشكوى والتذمر. لن أناقشها. وقفت خارج الغرفة الدخانية لأبعد أناستاسيا عن هواء الحشيش . لقد غفت على كتفي. صحيح أنها كانت في حاجة الى من يحملها. قال لي لوشوفاليي :

- كلما ابتعدت عن أصدقائي صاروا أقرب اليّ. تَماسٌ ولا تَتواجه أوتلتصق. أغلب النّاس يرون حدوداً حتى عندما لا تكون

هناك حدود.

أشرت الى كوخ توماس الروخو:

– كان يسكن هناك عجوز اسباني مات منذ شهور. كنت أعرفه.

– أتمنى أن يكون قد عرف كيف عاش.

أناستاسيا نامت. مددتها فوق الفراش الواطئ. مدت لي باتريسيا صاروخها. عاطفتها ضبابية، رومانتيكية، لكنها تعرف كيف تتلذذ باخفائها.

– ما هي قصة العجوز؟

– كان يكره فرانكو، ويبيع بالونات للأطفال. (كنت أكلمها خارج الغرفة)

– أهذا كل شيء عنه؟

– وماذا تريدين له أكثر؟

– كان يعيش اذن زمن الصمت في المنفى!

– وماذا تريدين له أن يفعل؟

– انك تبالغ دائما في تمجيد حياة الشيوخ. لم يعد هناك من يستوحي زمن النبوة.

– كيف وجدت بينيتو هذه المرة؟

– لقد أفطرنا معا في مقهى سنترال.

– قال لي ذلك.

– قرأ عليّ قصائده الثلاث الأخيرة. انه تخلى عن تلقائيته الشعرية وبدأ يعقلن الأشياء، لكنه لم يبرأ، بعد، من أبيقوريته.

– ومن قبل كان يطمح أن يصير صوفيا. انه مرحلي.

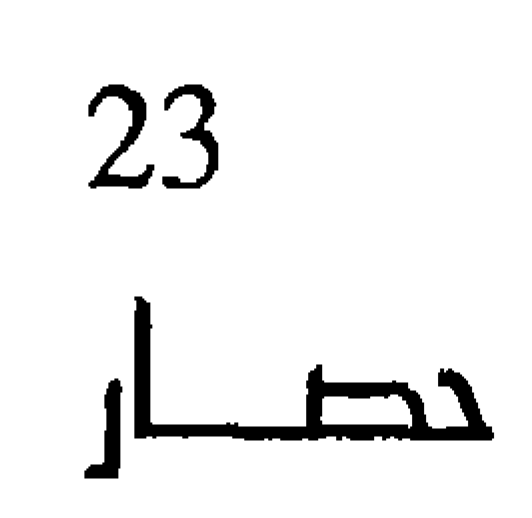
– أعرف هذا. قل لي: وصديقك لوشوفاليي؟

– مازال يحيا. تلازمه، هذه الأيام، سوداوية. له أخ في أوستراليا يتراسل معه على فترات متباعدة. لو شوفاليي يتهم أخاه بول بخيانة زوجته لأنه هجرها ليتبع امرأة أخرى الى أوستراليا. وفي

آخر مراسلة بينهما كشف له أخوه عن أن كلاهما عاش مخدوعا. ان زوجتيهما الأختين كانتا تخونانهما مع عشيقين من أيام الصبا.

زوجة شارل لوشوفاليي ماتت، وأولادهما تزوجوا وأنجبوا أما بول فلا أولاد له: زوجته، اليوم، تجترّ شيخوختها وحدها في لوفان . LOUVAIN

رحلت باتريسيا مع آخر الهيبيين في بداية السبعينات ولم تعد قط الى طنجة. في الصيف الماضي زارني شاب ايطالي. أخبرني أن باتريسيا مصابة بورم مخي خبيث. ابنتها تدرس في الجامعة. كتبت لها كلمات وداع. لاأحد يجيء بعد أن يجيء الأخير.


23
حصار

هل ينبغي لي أن أكتب عن الثلج حيث يوجد أو عن السيجارة المشتهاة في الزنزانة؟ قد يكون ما يمكن أن يكون. لنترك فسحة مجال لمن يأمل، رغم أنه لا مجال، وكل مجال.

قاسم وحيد أمه. يعيش معها، لكنه يرفضها وهو لصيق بها. يطيعها، أماً، لكنه عاجز عن اقتناعه بتوبتها. يحبها ويكره امرأة أخرى. لحظات تنتابه هدوءاً معها فتغمره أخْيِلَة: طفولته في اشراق بحيرة سرية، لكنه يعيش ذكرى حصار وهَمي: غرام في " ضاية عوّا ". قيدته أخطاء كثيرة لا يعرف كيف ينفكّ منها. القريب منه بعيد عنه. الخوف يخدر حواسه فيشرد ويغيم ما يحدث له في حزن. لا يعرف كيف يستمد شجاعته من خوفه. انه حبيس حصاره. كل علاقة تضاعف شقاءه. أصدقاؤه لا يتعدون أصابع يده. ذات ليلة أسكرناه في بيت أحد هؤلاء الأصدقاء. تطوعت فتاة شبه محترفة لتخرجه من

حصاره. اكتريناها. مخرج ضيق، لكنها محاولة . كاد أن يخنقها لو لم نقتحم غرفتهما. في تلك الليلة خبط أمه بما طالته يداه. انها البداية التي لن تنتهي معها كلما سكر وتخانق مع إمرأة. تعوّد أن يأكل ما هو حلو مع أمه، لكنه يفتقد أية حلاوة مع غيرها من النساء. لا يريد أن يبقى مجرد تذكار في ذاكرة من يشفق عليه، لكنه عاجز عن تخطي أي حاجز لفك حصاره. يخشى أن ينخدش. يصاب بالدوخة عندما يفكر في المغامرة التي ستقوده الى المجهول فيظل حبيس نفسه. نادراً ما يجلس في مقهى، واذا جلس فقدام الباب: انه حصار آخر. يمشي كثيرا ليخفف من توتره. نزهته عبر الشاطئ أو في " الجبل الكبير. " يزورني مرة أو مرتين في الأسبوع. لم نكن صديقين حميمين، لكني أشفق عليه وتجمعنا المهنة: هويدرّس الفرنسية وأنا العربية. اهتمامه بالأدب الفرنسي يبدأ مع مدام دو سطايل وينتهي مع ملارمي. نستمع معا الى الكلاسيكيات. أحبّها اليه لاباتيتيك، شهرزاد، دون جيوفاني وايرويكا. حضوره ليس مزعجا لمن يحب السكوت. أقرأ أو أكتب وهو شارد مع الموسيقى. عندما يتنهد ينظر اليّ. أتعمد ألاّ أنتبه اليه. ساهيا ينظر اليّ مرات. لاشيء مني يثير وساوسه . يستعيد طمأنينته وشروده وأنا قارئ أو كاتب أو متظاهر بالشرود مثله مغمضا عينيّ. يخجله ماضي أمه . كافحت بجسدها الشاب من أجل مستقبله، لكنه لم يغفر لها ظروفها. هجرت الرجال وصارت منظفة في فندق حينما أصبح هو معلما. هي الآن في حدود الخمسين، وهو يقترب من الثلاثين. يحمل معه دائما صورة لها في عزّ شبابها. يعتقد أن كل من هو في عمرها قد يعرف مهنة شبابها: الرجال والنساء. سألته امرأة في الحيّ عنها فهاج:

- لماذا تسألين عنها؟ من أين تعرفينها؟ أهي من عائلتك؟

-لم يعد يجرؤ أحد أن يسأله عنها: الرجال أفظع. أخرج صورة أمه ومدها لي:

- هل تعرفها؟
نظرت اليها واليه :
- لا.
ألم ترها قطّ؟
- أبدا.
أعدتها له :
- من هي؟
قال باضطراب :
- أنا نفسي لا أعرفها. لا أدري من وضعها في أحد كتبي.

عبثا حاول أن يبعد أمه عن طنجة ليعيشا في احدى المدن الشمالية : اصيلة، العرائش، القصر الكبير، تطوان والشاون. أينما شاءت، لكن أمه تصرّ على العيش والموت حيث ولدت.

هذا المساء زارني على غير عادة هدوئه. حتى الموسيقى التي يحبها لم أحسّ أنه يتمتع بها. أقلقني معه. تمنيت لو أني لم أعرفه. حدست أن شيئا غير عادي سيحدث. كنت أقرأ رواية العطر لباتريك سوسكيند في ترجمتها الاسبانية. أخرج قاسم، بكل هدوء، خنجرا مطويا تطابقت طقطقاته مع خفقات قلبي وهو يفتحه سنّا بعد سن. ماذا يريد بي؟ تخويفي لكي يتلذذ؟ جريمة مجنونة عن يأس؟ لكن لماذا أنا بالذات؟ ليس بيننا أية خصومة. لا أعرف عن أمه أكثر مما سمعته عنها. أنا في نفس عمرها. هذا كل شيء. لم أفهم شيئا. ليس هناك مبرر لكي يعتدي عليّ.

أسطوانة لا باتيتك تدور وهو يلامس بهدوء، ومهل، أظافره بشفرة الخنجر. نهضت دون أن ألتفت اليه حاملا من المطبخ الخشبة التي أقطع عليها اللحم ومقدّة ثم فتحت الثلاجة وأخرجت منها فخذ خروف. وضعت الخشبة فوق الطاولة وبدأت أقدّ الفخذ بالمقدة بنفس الهدوء العصبي، المتلاعب الذي يلامس به حدّ الخنجر أظافره. كلانا

كان يمثل في تحدٍّ: مزيج من السخرية المرعبة. أبداً لم يسبق لي أن مررت بمثل هذه التجربة المجنونة! صرت مجنونا مثله. أتمنى أن يحدث شيء عنيف يغير حياتي. اشتقت الى ذلك. أريد أن أختبر نفسي. إما هو وإما أنا. أتوقف لأدخن سيجارتي الموضوعة في شق المنفضة ثم أعود الى قدّ الفخذ. ذات لحظة فكرت أن أُهوي بالمقدة على رأسه وأقده مثل هذه الفخذ وينتهي هذا الاستفزاز المجنون. يتابع حركاتي ساهيا، وبنفس السكينة المتلاعبة، التمثيلية، التي أخرج بها خنجره المسنون، طواه وأعاده الى جيبه. غمست أصبعي في شق اللحم ومصصته بلذة. غادرني في صمت دون أن نتوادع. في منتصف الدرج التفت اليّ وابتسم بعصبية ثم قهقهه ونزل. أنا أيضا قهقهت.

في تلك الليلة صرخت أمه واستغاثت أكثر من العادة. ثيابها ممزقة ووجهها مخموش. تبكي ولا تريد أن تحكي شيئا بوضوح عما حدث. آخر جارة غادرتها سمعتها تقول:

– لن أراه أبدا. لقد خرج من بطني، هذا أكيد، لكنه شيطان.

بعد حوالي سنتين، كنت عائدا من الرباط الى طنجة. توقفت الحافلة في محطة العرائش. نزلت لأشرب شيئا. انه قاسم: حاف، ملتح. وسخ الى حدّ التقزز. يجمع عقبا من هنا وعقبا من هناك. واحد في فمه مشتعل. في يده اليسرى كتاب ممزق. ألغيت مشروبي وذهبت لأشري له السجائر. لم أتأخر، لكنه اختفى. بحثت عنه في كل المحطة. سألت عنه خادم المقهى.

– انه ينام في المقبرة النصرانية القديمة. يسمونه الفيلسوف.

سمعت زمارة الحافلة تعلن الإقلاع فركبت.

24

مايوركا

لم أكن أعْرف أن لطيفو لوطي إلاّ هذا المساء. ربما لم يكن فخّاً مقصودا! كان صحبة شاب أمرد. نشرب في مقهى روكسي. هنا عرفته منذ شهور. لم أدركم من أيام وأنا أشرب بافراط! ذاكرتي هذيانية، مُشَوَّشة، غائمة، هاترة. اقترح عليّ لطيفو أن نشرب في صومعتي. وافقت بهزة من رأسي. أكاد أنهار، لكنني أكابد. حدست أن شيئا ما مبهم ينتظرني هذه الليلة. غاب وعاد حاملا زجاجة نبيذ وزجاجات بيرة.

بدأنا، في شقتي، نحتفل بمزج النبيذ بالبيرة. باس لطيفو معشوقه. مازحه. استنشى المعشوق دون أن يبالي بي. نظر إلي باغراء. مستعد أن يشاع. أسر لي لطيفو أنه مَشروك بيننا. رفضت. ذهبت الى المطبخ ووضعت سكيناً في جيبي. فتح لطيفو الباب. كان جون لينون يغني " خيال ". IMAGINE قفزت وأمسكته من ذراعه.

- ستترك الراديو - الكاسيت في مكانه.

الأمرد انسلّ مثل قطّ استشعر الخطر. غَلّقتُ الباب. دفعني فتلقتني الثلاجة. أشهرت السّكين. أطلق الراديو - الكاسيت من يده وجرى نحو الشرفة. أتاحت له مساحتها الكبيرة كي يراوغ بين الغسيل. تَلقى الطعنة بِجُماع قبضة يده.

يبدو أني سددت السكين الى بطنه. رحت أخبط عشوائياً بجنون. لم أكن أنا. كان الوحش القابع في كل انسان هو الذي يطعن. بدأ يعوي. فكرت في الجيران فتوقفت . أتحت له المجال لكي يخرج. ركلته وأغلقت الباب. تمشيت بين الغرفتين والشرفة بجنون مسرحي خابطاً الهواء بالسكين كيما أسكّنَ الوحش الموقّظ، الهائج، الجائع والعطشان. رميت السكين من الشرفة الى الشارع. قد أطعن بها نفسي في مثل هذا الانحطاط العصبي والجسدي. نمت بكامل ثيابي منخرطاً في نوبة من البكاء الهستيري. حلمت برؤوس تُقْطَعُ وعروقها تفور ثم تنشف، وببطون تُبْقَر، وعيون تُسْمَل.

في الصباح أفاقني دقّ على الباب. كانت لطخات دم على الجدران. كنت كليّ أرعش وأنا أفتح الباب. انه عبد المالك، صاحب العمارة. لم يحاورني عما حدث. استسلمت له. غمغمت:

- خذني الى تطوان. مستشفى مايوركا. الدكتور الجعيدي. أعرفه. سأكون في اطمئنان عنده.

أفقت حوالي الثانية صباحا في حجرة مع مريضين. عزلة اشتقت اليها. بعيداً عمن أعرفهم ومن لا أعرفهم. أفّ للقرف البَشري. دخنت سيجارتين. استيقظ النائم عن يساري. أعطيته سيجارة. دخنها بلذة. تحدثنا عن النوم وعدد ساعاته اللازمة للإنسان، لكننا اتفقنا على أن النوم في المستشفيات، والسجون، ليس مثل النوم في بيوتنا. الهدوء شامل في المستشفى كله. فجأة ظهرت امرأة تَتَمَشّى في الممرّ جيئةً وذهابا. حدجتنا بنظرة كئيبة. ربما هي تكافح أرقها اذا لم تكن قد

تناولت القرص المُنَوِّم. نفسيتي هادئة. امرأة أخرى تستيقظ وتفتح الراديو. قال لي جاري العمراني :

- انهم ذبحوا لها ابنها في فاس بعد أن اغتصبوه. عمره اثنتا عشر سنة.

في الصباح، توافد على حجرتنا كثير من المرضى، رجالا ونساء. كانوا يتناوبون في المجيء. انهم يشمون المريض الجديد. ترك لي عبد المالك حفنة من النقود. مريضة تغري بجمالها وغنجها. طلبت أعزّ شيء في المستشفى : سيجارة .لم يسعفها الانتحار. ابتلعت كمية من الأقراص المنومة، ومضغت الزجاج. ذكرتني بالمزميزي في مستشفى بني مكادة. أسجل هذه المذكرات في أي وقت. انها الخامسة صباحا. عندي امتياز للخروج من المستشفى. لا أخرج الآ لشراء حاجياتي. ان الوجوه في الخارج تبدو لي بليدة، مزعجة، أما هنا فهي وجوه أذكاها الشقاء، والقلق الدائم. خبز المستشفى له طعمه الخاص. ان المجانين يفتحون لي أبواب الإلهام لأطلّ على العالم. كلما نظرت الى مجنون رأيت فيه شعلة الذكاء خابية عمرها عمر البشرية نفسها. هنا يتجلى منتهى شقاء الانسان. أسمع صرخات غلام يبكي :

- ماما، خذيني الى مرتيل. مرتيل، مرتيل!

لأول مرة يكلمني عبد الحكيم. كنا نفطر. قال لي :

- من جاءنا فهو أخونا، ومن لم يجئ فهو أخونا الحقيقي، أعطني سيجارة. لقد حلت في روحي روح المهدي ابن تومرت .

- أنت المسعود.

- عندي لك طلب.

- ما هو يا حكيم؟ (هكذا صرت أناديه.)

- أريد جلبابا أبيض لأحكم بالعدل. ان هذا الخاتم الذي تراه أعارني إيّاه سليمان الحكيم، وأمرني أن أحكم به .

- لكن رجال العدالة اليوم يحكمون بلباس أسود.
- هؤلاء لم تصلهم بعد دعوة البياض، أما أنا فقد وصلتني قبلهم. البياض البياض..!
قال نجيب:
- أما أنا فأشتهي ما يؤكل أكثر مما أرغب في أكله. لا أريد أن أكون وردة أو غصناً يابساً ليُحرق، إنّما أريد أن أصير حبة رمل. ان حبات الرمل أكثر شبهاً ببعضها من الزهور والأغصان.
دخل حجرتنا أحد المرضى وقال:
- ان المطر يسقط علينا مثل الحجر.
أحد المرضى سقط من يده كرتون حليب فانفجر. ركل الكرتون ومضى. قام آخر فاتجة إليه وراح يَرْشِفُه مع الوحل. قال ميلود:
- لقد خرجت من بلادي حافيا، ووصلت الى بلد غريب حافيا، ما جدوى ما في الطريق اذن؟ قابلت حفاة وغرباء مثلي. طريقنا كانت مختلفة، لكن منفانا كان واحدا. انهم لا يستعملون الحطب. انهم دائما يقفلون حتى نوافذهم. لكل باب عين في وسطها هي مثل عين سمكة ميتة. من يستطيع أن يدق على أبوابهم!
آه من الغربة في المدن! أملنا اذن في أكواخ الجبال والبراري. هناك يجد دائما الغريب ملجأ له.
سلفت لثريا نهارا درهما. ومن عادتها أن تستيقظ في تمام الثالثة صباحا. وَسَوَاسُهاهو أن تنظف الممرّ والحجرات في جناحنا. لا أحد يستطيع ان يمنعها. توقظني كل ليلة لترد لي الدرهم الذي تأخذه مني نهارا. ذات ليلة انزعجتُ من هذا الإيقاظ فأخذت تبكي وهي تردد:
- أنا مثل أختك، لكنك لا تحبني!
عبثا حاولت أن أقنعها أنني لا أريد أن توقظني وقت تنظيفها. كانت تدخن سيجارتها متأملة، جالسة على الأرض. ندمت على عتابي لها، لكنها استمرت تسلف مني الدرهم كل يوم في النهار

لترده لي في الثالثة صباحا. أعتقد أنه نفس درهمي. انطح الجدار، اذا شئت، إنها ثريا المنظفة الليلية دون أن يكلفها أحد بهذا الوسواس. تحاور نفسها. تدمدم. لا ترابط في كلامها. في ليلة سألتها:

- من لا ينام الآن في الحجرات الأخرى؟

- كلهم ينامون. الجنّ هم الذين لا ينامون.

يُؤَمِّنُ عندي، أخو الباهي، ثلاث أو أربع علب سجائر لأخيه. يستهلكها له المرضى في يوم واحد إذا هو أعطاها له. أعطيه أربع أو خمس سجائر مرتين في اليوم. يدخنها على التوالي دون توقف. يعدني، كلما رأيته، أنه سيُورثُني بَغلة، ونقوداً من العُملة الحَسنية مطمورة تحت شجرة تين. الزمَنَ الذي يتكلم عنه هو بداية الثلاثينات. أكله المفضل هو البيض المقلي. عندما يأتي له به أخوه يعزف عن أكل المستشفى. غالبا ما يُؤاكلُه، هذه الوجبة، الودراسي. كلاهما أزْمَنَ هنا. يتحدثان عنّ أشياء مَشتركة بينهما. إنهما بَدَويان. يحتدّ حوارهما كُلّما اجتمعا. كانا يأكلان وأنا قربهما. فجأة أصبعه الودراسي في عينه اليسرى. الدم يسيل من الخَدَش تحت العين، لكن حديثهما استمرّ. ناديت الممرض في الدَّوَام. عالجه وهما مستمران في أكلهما، وحديثهما. لا عتاب بينهما. ولم يقل الممرض شيئا لأحدهما. عندما انتهيا من الأكل باس الودراسي رأس الباهي وانصرف شاكرا. أعطيت للباهي ثلاث سجائر وتركته يتلذذ بتدخينه، وتأمله. انه يشعل الواحدة بالأخرى حتى تنتهي.

جاءني عبد المالك بالجلباب الأبيض من طنجة. اشتريت لحكيم صابونة ليغتسل. راح يزهو بحُلّته الجديدة في جناحنا، ثم ذهب الى الجناح الثاني، لكنه عندماَ أراد أن يدخل الجناح الثالث، جناح الخرائين في ثيابهم، كما يسمونهم، منعه حارسهم البوعناني. كان حكيم قد تعلم شيئاً من الكراتي. البوعناني قَوي، جسمه دُبي، لكن لَكماته يَخبطها في الهواءأمام حكيم. جلبابه

ممزق، مُلَطخ بالدم. سألته:

- كيف تركته يمزق لك الجلباب؟

- ولكن وجهه ممزق أكثر من جلبابي. (امشِ شوفْ الوجه اديماه.)

- والآن ماذا ستفعل بالجلباب؟ انك لا تستطيع أن تحكم به حتى وان رقعته. لن يكون حكمك عادلاً.

- أعطني ثمن خيط وإبرة. سأؤَجِّلُ مُهمتي للحكم، وكذلك الزيارة التي كنت أنتظرها.

- زيارة من؟

- من كان سيُنصبني للحكم.

طلبت مني أيضاً ثرياً الدرهم المعهود. المساء يقترب. إنها ستنام الآن لتوقظني، كالعادة، في ساعة تنظيفها، والدرهم في يدها. أمطار خفيفة، والجوغائم، ومريض يغني:

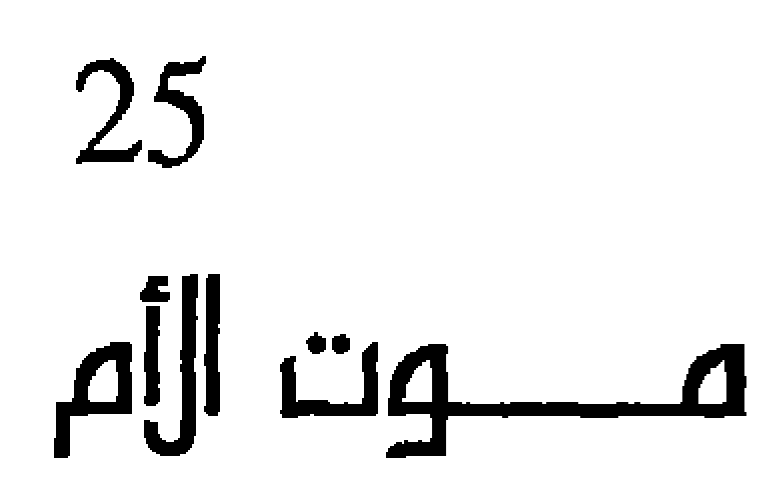
- الليل ليلنا، أينك يا ليل؟

قضيت يومين مع أسرتي. الصمت الصحراوي مازال قائماً بيني وبين أبي. إرضاءً لأمي، كالعادة، بستُ له رأسه دون أن نتكلم. الشقاء الذي نلته منه في طفولتي يناله مني في شيخوخته. لا مُصالحة بيننا إلى الأبد. أردت أن ألقي نظرة على دروب طفولتي. تذكرت بوعَصا وعربدته السكرية في جبته البيضاء في العيون، وازرَعْ كُون، والمجذوب السي المُفَضّل، وآخرين أنساني اغترابي حتى أسماءهم. كوميرومات، وبطاطي هو الباقي الوحيد من بين رفقاء طفولتي. عند مدخل باب النوادر فاجأني المَشهد: انه حكيم. يلوح بعصا في يده وخلفه جماعة من الأطفال. لقد هَرَب اذن! رآني فأوقف فرِقته. سألته:

- الى أين يا حكيم؟

- الى المستشفى ان شاء الله.

- وهؤلاء الأطفال؟
- انهم أنصاري.
- ماذا تنوي أن تفعل معهم؟
- سنحرر اخوتنا هناك.
- وأين السلاح؟
- الحجارة، سنحارب الجديد بما هو قديم. تعال معنا.
- أنا عائد الى طنجة لأحرر مثلك اخوتنا هناك.
- بَلـّغ لهم سلامي.
دسست له عشرين درهماً في يده فعانقني داعياً بالبركَة. استأنف مسيرته وفرقته تتبعه.



25

موت الأم

بين أعمى ومبصر، حقيقة الشيء يختلف معناه في لَمْسهمَا وإنصاتهما. هذا ما يقوله، عادة، المبصرون. ماذا عسى يقوله الإبن عَن موَت أمه؟ لا شيء من كل شيء. أمنَ القطرة نعرف البحر؟ ومن حبة الرمل نعرف الصحراء؟ والورقةَ الوحشية الخضراء هي كل الغابة؟ هذا مثل من يحلم بالسفر ولا يسافر؟ انه يتوالد ولا ينتظر موسم اللقاح. أما أنا فلا طموح لي في يمين الأصفار، وذرية الأجيال. ان الكلمات تَبلبلت، والوحيّ اللغوي مات قديسوه. لم يبق لنا إلاّ كفاح أهرامات ذكائنا تنبعث خلاياها السابتة لتنقذنا من ركودنا في الأوان المناسب. عاش الأحياء قدرما يموت الأحياء - الأموات! رنين الجرس متواصل مصحوباً بدقات على الباب. عنيد هو من يدق . أهو مجرد ازعاج ليلي أم اعتداء صريح؟ من يدري! انك، غالبا، لا تخلق أعداءك، انما يخلقون أنفسهم فيك أو

يخلقونهم فيك . هناك دائماً متطوعون. انه وسواس. لا أكثر من أن تكون، في مثل هذه الساعة الفجرية، إحداهن. ليست هذه هي المرة الأولى، لكن ليس بهذا العنف والإلحاح. آخر مرة جاءت حمقاء مُسالمة تطلب سجائر في آخر الليل. انها تمجد الحشيش، والنسيان، لا منَ كان أومن سيكون .الجرس والدق متواصلان. لم يحدث، من قبل، مثل هذا الاستعجال. مازلت ثَملاً. شهر يونيو. الصيف لم يعد له وجود في حياتي. عَفَن. زمن اشراَقه كان في شبابي. ربما أنا الذي عَفَنْتُ. يقلّ فيه طعاميَ ونومي. ما كنت أكذبه أصدقه اليوم. متى يكَون المكْذَبان صادقا؟ والنّكبات التي تُولد الطاقات؟ والخراب الشامل اَلذي يعيد بناء المدن؟ انها المصائب التي تخلق الجمال! هذا ما يقوله علماء العمران. المرأة التي تَتَعَرّى، نموذجاً، لا تثير شهوة الرسام: لأن الفن يبتلعها. الزمن لا ينتظر الكُسحان . لا يتطابق العيش وفهمه في آن. ربما أجمل العيش وَهْمُه . لسان البحر يلعق قدمي. أبلل ابطي، وأنظر الى الأفق، والى السماء، وإلى الرمل ثم الى أقصى الزرقة المغرية بالمغامرة المميتة. كدت أغرق ثلاث مرات كلما بَجَّحت نفسي فيه. مرة أنقذني بن بوبكر صحبة صديقه فلوريس (1) في شاطئ مَرْتيل. اليوم أرش رأسي بحفنة أو حفنتين. لم أعد أنخدع بانجذاب فيروزيته ولا زورديته الأصيلية. أبداً لا. الرنين والدقّ تَوأمان. حمقاء أخرى. فلتنتظر! أهو أنا دائما ملجأ آخر كأس، وفراش لآخر الزُّناة؟ كان هناك غطَّاس يقول ليَّ: مَهْبلٌ في خيالك عندما لا يأتي في أوانه الغائب الذي هو لغيرك. إن قرابَة نفسك أَوْلَى من البعيد المنتظر. الدقّ الآن جنون! أستقبل، تباعا، ضيوفاً لا بحر في مدنهم. مدينتي ليست لهم الاّ الشوارع – الارشاد، والمقاهي والحانات – اللقاء، والملاهي والفنادق – المواخير. هذه هي كل

---

(1) ملاكمان عاشا في تطوان في أواخر الأربعينات.

مدينتي لهم. ليست لهم إلاّ الفرج أمامهم، والأست وراءهم، وليس لهم إلاّ النصر العزيز. لقد أسطَروها ومازالوا يتساءلون عن مُنشِئها. الشراب، مع ضيوفي، خرافي.

أهزل وأهزل – كلما جاءوا – حتى الإنهاك، والإغماء، والهَذيان، حتى ماتت أمي في غيابي. مشيت حافيا. كشف لي، ضابط الرؤية، عن ضباب شبح.

– من أنت؟

لا كهرباء. انهم يحافظون على الطاقة منذ سنوات. الرنين والدقّ معا. مجنونة. لا بد أن تكون قد تقيأها آخر ملهى في حالة إفلاس قاهر. قال لي مسرحي: "لقد كسبت صداقة النساء أكثر من صداقة الرجال." أنا لست كاسباً إلاّ صداقتي مع نفسي.

– افتح، أنا العاقل.

انه هو إذن. زوج أختي. ما حدث لا بدّ أن يكون مصيبة حتى يجيء في هذه الساعة.

– أمك ماتت.

بصوت مبحوح ثمل:

– ماتت اذن.

– نعم. البس بسرعة.

أصب الماء على رأسي مُقاوِماً تَرنُّحي. هذه هي مساوئ ضيوفي الذين يشربون أكثر مني حتى الانحطاط الجسدي والمعنوي. انهم جِمَالٌ تَرِد. قلما ينتهي سكرهم دون نحس: يكفي خلافهم في معنى بيت شعر. هم يعودون الى مدنهم ليستريحوا، وأنا أبقى هنا دولابهم. كذلك فعلوا مع سكوت فتجرالد، وجاك كرواك حتى قتلوهما بالأنخاب. محكوم بماضي معهم، لكن ينبغي أن أحسم في قول لا لصحبتهم. لقد بنى هنري ثورو كوخاً في آحراج وايلدن بند (1) وراح يكتب عن النمل، وروائح الغابات، محتقراً هواء المكاتب

(1) WALDEN POND

الفاسد. ان رائحة الروث، في الحظائر، لَهِيَ أزكى من روائح أفخم الخمارات. الخامسة صباحا. سيارته متينة وجديدة. سرعته بالغة، لكنه ليس طائشاً في سياقته. من عادتي، ألا أقول لمن يسرع أبطئ. انه قد يتمادى في السرعة: تبجحاً أو عِنادا، بل قد أشجعه على التمادي فيها بحماس وانشراح رغم أني حريص على حياتي المهددة بهذه المجانية العبثية. لكن هؤلاء لا تخش على نفسك معهم: فهم غالبا ما يخفون جبنهم في سرعة قد تدوم لحظة أو لحظات ثم يرزِنون شاحبين، خائفين. طبعا هناك مجانين السرعة الحقيقيون مثل جيمس دين الأصيل في جنونه.

– متى ماتت؟

– منذ ساعات في المستشفى المدني. مضى يومان وهي في غيبوبة.

لم أرها منذ أكثر من سنة. شغلت المسجلة ورجوتها أن تغني لي بالريفية. انحرجت قليلاً باسمة ثم غنت. الكلمات من خلق مرح الطفولة والحطب والحصاد، لكن صوتها حزين. لقد أضعفتها شيخوختها المهمومة. الاغتراب بَرَّدَ حنيني اليها. لاشك أنها فكرت، كعادتها، في بعدي عنها. اني شاطر الأسرة الوحيد. انها ميتة – حية: أيقظني حنيني اليها صباح صيفي. خواء في الروح. انحطاط صحي. لم أتذكرها ميتة إلاّ وأنا في محطة السفر. لا تقهرني العزلة إلاّ أيام المرض. الثالثة صباحا. غالبت انحطاطي حتى وقفت. مترنحا وصلت الى الباب. وضعت الفرجون (فرشاة الملابس) في فرجة الباب حتى لا ينغلق. قد لا أستطيع النهوض مرة أخرى. سأحبو أو أزحف اذا ما تفاقم مرضي. أغفو وأصحو. ربما ما بينهما هو الأجمل. كل ما أتذكره في وضوح هو أقل جمالا. ليس عبثا أن تتغذى السمكة الساحرة من سمكة ميتة. النور الشفقي يبزغ. منذ سنوات لم أر فيها

مثل هذا المطلع. هيكل سيارة مهشم، صدئ، قرب شجرة هي كلها جذعها اليابس. بقايا كلب في الطريق، طيور تحلق، اخرى جاثمة على الأسلاك الكهربائية. لم أزر سبتة منذ تزوجت فيها ارحيمو في حيّ البرينسيبي. أكثر من عشر سنوات مضت. من تقاليد قبيلة زوج أختي أن يحمل أخو العروس الأكبر أخته بين ذراعيه من الهودج الى صحن الدار. وجدني عبد العزيز في حانة شعبية مع عجوزين اسبانيين عاش أحدهما زمنا طويلا في طنجة. غادرها بعد الاستقلال. يتذكر فيها يهوديات من أوروبا الشرقية أيام النازية، نُقَلَ العصافير الدورية والزرازير، والسردين المشوي بالبصل في الخمارات الخلفية، ونبيذ البراميل، والصناديق - المقاعد، وكل ثلاثة كؤوس نوبة الدار ثم دائما هناك أكثر من زبون يتطوع للغناء. كدت أسقط وأنا أحملها. شطر العروسان خبزة الدار الكبيرة، المدورة، خُبِزَت لهذه الزفة. نثروا عليهما الملح. رشفتان من الحليب وحبتا تمر. وضعوا مفتاحا كبيرا في يدها. نساء من عائلة العريس يتخاطفن المناديل المزركشة التي زُيِّنَ بها الهودج. كذلك فعلن بالدبابيس التي تشد المناديل . هذا يبطل السحر كما قيل لي . السلطان للعريس وأهله . أهل العروس شاهدون وشبه خدم. شكّلَ العريس قوساً بذراعيه في إطارباب الحجرة. مرت العروس تحت ذراعه المقوسة منحنية الرأس، ومررت أنا بين فتيات يتصورن مع العروس لأعود الى حانة العجوزين الاسبانيين.

- بماذا ماتت؟

- بنزيف أنفي. لم يتوقف خلال أسبوعين.

اصطدم عصفور بِمُقَدَّمِ السّيارة. ربما لم يلتقط بعد حبته الأولى التي حلم بها. راع يقود قطيعه الصغير وخلفه كلبه الهزيل. امرأة تحلب بقرة. دجاجات وكتاكيت. طفل مُقعىً ينكت الأرض بقصبة . تتخطى راكب دراجة بائسا. يُدَوِّس بعناء. دراجته قديمة. العرق

اليومي يبدأ. مباهج الصباح تنبثق. تهبّ ساطعة. أُغالب غفوتي. بيرة باردة. هذا ما أحتاجه الآن. تَلْفَنَت لي مليكة من تطَوان راجية مني مساعدتها بمائة درهم لترميم ضرس يُؤَرِّقُها. أخبرتني بموت الأب.

- متى مات؟

- منذ شهور.

لماذا لم تخبروني يوم موته؟

- لأننا نعرف أنك لم تكن أبداً تحبه.

- والجيران ماذا سيقولون عني!

- هم أيضا يعرفون أنكما كنتما دائما تتباغضان.

كذلك فعلوا معي عندما ماتت خالتي فلم أعد أهتم بمن يحيا منهم ومن يموت. انهم لا يخبرونني إلا بأعراسهم. لابدّ أن أمي هي التي طلبت حضوري. حتى في أيام مرضها وغيبوبتها لم يخبروني.

جيفة حمار في طرف حقل القمح. الأشجار كأنها تُسابقنا ونحن نتخطاها. يدا صهري ثابتتان على المقود. لا يدخن ولا يشرب. أنا غالبا ما أمسك كأسي الأولى بيديّ المرتجفتين اذا لم أكن قد اَسْبَتُّ في نومي. اشعلت سيجارة. في النّشقة الأولى دخت، وفي المَجّة الثانية أخرجت رأسي من النافذة لأتقيأ الهواء، وتدمع عيناي، وتَمْغَصَ أمعائي. نظر اليّ بطرف خفيّ. انه لا يقترب منك ليشمّ رائحتك. قال لي أخي عبد العزيز: " لقد بنينا قبراً جميلاً لأبينا. لا بدّ لك من أن تزوره. " اخوتنا، الذين ماتوا أيام المجاعة، والبؤس محت الرياح والأمطار قبورهم المسطحة. طوبى لنا اليوم لأننا بدأنا نستطيع أن نبني قبوراً جميلة لمن يموت من أسرتنا. هكذا قلت له فانبهرت نظراته. رغم نحيب أختيّ، ارحيمو ومليكة، وبكاء امرأتين مُهَرِّبَتين، شاختا صداقةً مع أمي في تطوان، فقد غلبتني غفوة. أفقت عندما صار البكاء نُواحاً. ماء الورد يعبق في حجرة الموت، حيث غسلوها. موكب الدفن يبدأ نحو مقبرة سيدي مبارك. موت الغربة.

حوالي عشرين مُشيِّعا. لا أعرف أحدا منهم. في الطريق انضاف آخرون الى الموكب. لم تتسع في الحفرة. أخرجوها مرتين فصاح رجل ملتح :

– أعباد الله ، ارحموا المرأة! احفروا لها قبرها الذي تستحقه! لا تعذبوها!

حفر اللحاد حوافي الجدث للمرة الثالثة. تمنيت لو قطعت يديه وسملت عينيه. حتى عند الموت يُضيِّقون الأرض. ماء الورد يُرَشّ على الكفن. صلاة العصر. خبز وتين يوزعان على الحاضرين . لم يكن هناك فقراء الخبز. دجاج محشو بالرز. شراهة الأكل ، حماس النقاش ، بين ارحيمو ومليكة ، حول بيع دارنا في تطوان. زوجاهما صامتان في حياد. بنيناها بالتعبئة الجيرانية ، بحجارة الجرف القريب من الحيّ. الأطفال ، والنساء ، والعاطلون كلهم شاركوا في بناء هذه الدار. أمنا أوصت دائما ألا تباع إلاّ اذا أرغمتنا الظروف ، ولم يكن أحدنا مقهوراً بخَصاص. أخي كنت قدوته بصمتي. أقنعتهم بعدم شهيتي ، لكنَ النقاش معي ، حول بيع الدار ، لن أعرف كيف أتخلص منه ، عندما ينتهون من المضغ ويوضع الشاي. غزاني غثيان تَلَتْه دوخة. طوال اليوم دخنت حتى تَخَشّب فمي. لم أشرب غير القهوة. زعمت أني سأخرج لشراء السجائر. نصحتني ارحيمو بالتقليل من التدخين :

– عبد العزيز سيخرج ويشريها لك ان كنت لا تستطيع أن تصبر حتى الغد.

وقفت وألححت على الخروج. أحسوا بانزعاجي. نسيباي لا يتفوهان بشيء. موت أمنا ومزاد دارنا في نفس اليوم. لم أستمرّ (من المَرارة) يوماً من حياتي كما استمررتُ هذا اليوم. بموت أمي تموت كل أسرتي. أكدت لي على عودتي فوراً لأني لا أعرف ليل سبتة. إنها لا تعرف أني قد آخيت ليلي مع أيّ ليل. انه دائما ينير لي درباً للنجاة. انه

يعرف أصحابه في أيّ مكان: باريس، باريو شينوفي برشيلونة، حيّ كارْمنْ في بَلنسية وباب مراكش في الدار البيضاء. في تلك اللحظة تمنيتَ لو أكونَ في مكان لا تعكر صمته حتى قطرة الرطوبة في كهف. لا أذكر الحانات التي دخلتها. لقد غام كل شيء في الحانة الثانية أو الثالثة. كيف غادرت المدينة؟ أصبحت نائما بكامل ثيابي في شقتي. عبثاً حاولت، عبر سنوات، أن أتذكر كيف وصلت الى طنجة. فردة حذائي ملآنة بالبول قدام سريري، والأخرى فوق طَبلية الليل يفوح منها النبيذ. أعرف شخصاً بال وهو سكران على ابنته في مهدها وهو يحسبه مرْحَضة. أنا لم أبل سوى على نفسي. يوم بعنا الدار، واقتسمناَ، حسب الشريعة الاسلامية، أخذت أختاي تتباكيان في صمت أمام العادلَيْن في دارنا التي كنا نودعها لآخر مرة. سألت جارنا عم يبكيهماَ فقاَل:

– عَلامَ يمكن أن تبكيا؟ على ذكرى الوالدين!

أخذت ألف درهم من قسمتي على الطيفور، ومثلها من قسمة أخي، وأعطيت لكل واحدة ألفاً فَجَفَّت دموعهما. همست لجارنا:

– انها مسرحية أشخاصها مهرجون، منافقون.

غادرت تطوان شاعراً أن حَبلنا السُّريّ قد انقطع، وأنَّ جذوري من شجرة عائلتي قد تَعَفَنت الى الأبد.

26

عشق ما لا يمكن أن يكون

ليست هذه المرة الأولى التي تجيء فيها سالية الى طنجة من مدينتها الصغيرة. تجيء زائرة، لكنها، هذه المرة، تريد أن تقيم. طنجة الحلم، طنجة العارية، الرّنانة، الشّفافة مثل كأس من البلّور، طنجة الأسطورة، والجبل والصدى لكلّ صوت، لكن سالية لا تعرف أن طنجة تستحق من لا يعرف كيف يشرب خمرها المسحور. إنها مثل كيركا الساحرة. (1) عرفتُ من جاءها ليكتب الشعر فلم يتعلم حتى لغة الحانات، ومن جاء ليرسم فلم يعرف حتى كيف يمزج الألوان.

---

(1) هي الساحرة كيركا أو سيرسا، ملكة جزيرة أيايا ذات الضفائر الشقراء، بنت هليوس، رب الشمس، من برسا، بنت أوقيانوس، رب البحر تسحر البشر والحيوانات بشرابها المسحور، وعصاها السحرية، حيث أحالت رفاق عوليس الى قطيع من الخنازير، ونجا عوليس من سحرها لأن الرّب هيرميز سلّحه بعشب الفضيلة الذي يسميه هو ميروس، في الأديسّا، " مولي "، لأنه يبطل مفعول شرابها المسحور الساحر.

جاءت سالية، هذه المرة، من مدينتها لتخسر كل شيء من أجل أن تكسب كل شيء. انها تُراهنُ بأسفلها على أعلاها الهَشّ. حضورُها، في الشراب والحشَيش، هَوَسَيّ. ومثلُ الفُطر الذي يتكاثر ولا ينمو جعلت الرجال يختصمون من أجل صحبتها. فُطْرٌ مسموم لمن يعشقها. تعشق كل الرجال ولا تريد أحدهم. كم تظاهرت، لتهيج المرتخين جنسيا، أنها تُغْتَصَب! إنها ابنة شرف (شاعر مدينتها شاهد)، لكنها لعنة عائلتها. تركت جسدها يغتصبه باكراً المراهقون، والحشاشون، والسكارى، من مدينتها وغير مدينتها. يدها ترعش إذا هي مدَّتْها الى الكأس ويتساقط رماد سيجارتها دون أن تنفضه. قالت لصديقتها كارولينا: " لقد خانني كل من وعدني. "

يئست من الحب والزواج فتعلمت كيف تجعل الرجال يتشاجرون من أجلها. كتبت في مذكراتها بخطّها العصبي، الرديء: " أنت تعترض طريقي في كل مكان، لكن، أنا، لا طريق لي. إنك تخيفني مثل وحش أسطوري. أنا أبحث عن حلم ولا أرى فيك أيّ ايحاء. انك تريدني، لكني أريد نفسي بنفس القوة التي تزعم أنّك تريدني بها.

صديقتي بالوما هي أيضا توزع وقتها بين الحشيش، والسكر، وكتابة خواطرها: " إنني لا أفهم نفسي فأكتب مثل مجنونة. السعادة، تبدو لي، مثل ضفدعة ذات قُبّعة من زيش الطاووس. الحب يخيفني. أنا ملاك جناحاهُ أسودان. انه قلب بدون عين. لا أريد أن أسافر على حافة الهاوية. لم يعد الحب هماً. صار مثل حوت ميت، في الصيف، على أحد الشواطئ المهجورة. "

بين الكؤوس وفراش الليل النابض يَقَظَةَ ندم. تعودُ سالية الى مدينتها لتعيش نقاءَ الهواء، لتسترجع في يقظة حلمها: نزواتها، وشهواتها، ثم طنجة من جديد بمساحيق زينتها.

للحانات مساوئها، ومن محاسنها أن نكون فيها. هكذا تُعَزِّي سالية نفسها. لكن للحانات مزاجها، ولحظاتها، وكأسها الأخيرة، وكل واحدة تريد أن تكون كليوباترة حانتها، والكأس المعروضة، اذا لم تحذر، التي قد تقودك الى وحل تلك الكأس الأخيرة: (عكاز الطريق) كما يقول السكارى الذين يتآزرون في محنتهم أكثر من غيرهم. انهم قد يُشْبعون الغرباء ويجيعون الأقرباء. إن وحدتهم قاتلة، لكن عدوانيتهم أكثر من مُؤانستهم. للسُكارى مزاجهم: لم أكن أقتات، خلال ثلاثة أيام، إلاّ بما يتبقّى من إفطار زبائن مقهى السي موح. البحر كان هائجا، والميناء مقفراً، من بواخر الحرب والسلع. حدث لي هذا عام 55. كنت زورقياً أحمل آخر البحارة الى بواخرهم وهم سكارى. الشّرقي (ريح الشرق) عاصف. مررت قدام حان ماريا وقت العشاء. ناداني عبد السلام. عرض عليّ كأس نبيذ. طلبت منه خمس بسيطات سلفاً لآكل بها شيئا ثم أرجع. فهمت من اعتذاره، المتلعثم، أنه لا يملك سوى ثمن شرابه، وكأس أو كأسين لي. فكرت: أمعي أنا؟ أكلتُ النُّقْلَ (أكلٌ خفيف مع الشراب)، الذي أعْطِيَ لي مع كأسي، التي رشفت منها، ونُقْلَ كأسه، ونُقْلَ جاره ثم تَوالت طلباتُه مُشَجِّعاً إياي على الأكل ومُرَحِّباً بالشَّراب كأساً تلو الكأس. بدأ ينهار ويتعتع. قبل أن يغادر طلبت منه مائة بسيطة فأعطانيها دون اعتذار أو تلعثم. لو أني طلبت منه أكثر لما رفض. ندمت.

زارت سالية أستاذها في منزله ليصحح لها ما تدعوه نصّاً شعرياً. شَربا وتحشّشا معاً. وعندما رفضت أن تنام معه، حسب قولها، مَزَّق ثيابها، وعضَّها، في عُنقها، وكتفها، عضَّات خُرافية. سالية تعترف أنه كان أكثر سكراً منها، وهي أكثر تَحَشُّشاً منهَ، في تلك الليلة. كان هو يعيش قصة حب فاشلة مع تلميذة أخرى يريد الزواج منها، وهي أيضاً، كانت تعيش صَدمةً عندما تَزَوَّجَ رفيقُها غيْرها.

ألها النّهارُ أم الليل؟

طُرِدَت من الكُلية لأن رائحة صُبحها صارت تَشي برائحة لَيلها. لا نعرف إن كانت تُحب الزُّهور أو العطور، أو لا شيء منهما.

جاءت سالية الى طنجة في زمن بارت فيه أجمل العاهرات. أكثرهُنّ حظاً قد يتزَوّجها عاطل، وهي قد تَعمل مُنَظِّفة في أحد الفنادق، أو في مَطبَخِ مَطعم. لم يبقَ إلاّ مجدُ الذكريات المهزومة، والجنون الكئيب، ودَفن الحبوط في السّكرو لَغوِ الحانات.

تتقاذف سالية الليالي بين فندق فاخرٍ أو بائس حَسب حظّها، أو سُكرها، وجيب الزَّبون. لا يهم من يكون. الليل والسكر يخفيان الويل. ومن منزل الى منزل حتى لم يعد ثَمَنٌ لِسَهراتها سوى تسكين هَوَسِها وقَلَقِها. كل ليلة قد يَعلِكُها أكثرُ مِن واحد، في رفاهٍ أو افلاسٍ، حتى نهايةَ حَلاوتِها.

لم تعد لِسالية رائحةَ النّهار. كل ليل لا نهار له. يقبحها النهار ويجملّها الليل. لم يعد يهمها إلاّ أن تكون حتى تعثر على من يهواها وتهواه، لكن العشق في طنجة ليس من أحلام العذارى. انها، هنا، فقدت نفسها لتصير مثل الأخريات.

انه زمن الشعر، وزمن الحلم في طنجة، لكن أين الشعراء، وأين الحالمون؟ ان الهزيمة تمشي في منتهى بؤس عرائها أينما شئت.

كيف عرفت سالية.

كنت الوحيد في قاعة فندق فيللا دوفرانس عندما دخلت. النادل يحدثني عن فرق كرة القدم الوطنية والمحلية. حين لا يكون في القاعة الصغيرة سوى شخص أو شخصين يلعن المدينين له. طلبت سالية بيرة ثم أشعلت سيجارة بيد مرتجفة. فتحت دفترا. قرأت سطورا ثم وضعته فوق الطاولة. النادل لا يكف عن الحكي. غمزني مرتين وهو يخدمها. فهمت منه أنه يمكن الحديث معها. تكتب وتشرب. تشعل سيجارة بأخرى. تدخن بعمق. لا يخرج من فمها الاّ قليل من الدخان

الباهت اللون مثل ضباب في الصيف. لا يبدو عليها أنها من " هُنَّ ". انها جرأة منها أن تشرب بيرة اذا لم تكن احداهن. لا شك أنها متحررة. طلبت لها بيرة. تشابكت نظراتها بيني وبين النادل. شكرتني برأسها وبسمة عينيها. وبين كأسينا وسيجارتينا طلبت منها نظراتي أن أجلس معها. وافقت بسمتها خافضة رأسها. الدفتر مفتوح. القلم فوق الصفحة نصف المكتوبة. لم تغلق دفترها عندما جلست جنبها. هذه جرأة أخرى منها. تبادلنا اسمينا. قالت انها رأتني في مدينتها مع أستاذها في الصيف الماضي. كُنّا نشرب في القصبة وهي تأكل السردين مع كارولينا. اختلست نظراتي خاطرتها في دفترها. " مع من أذهب اليوم؟ " أنا حائرة بين بقائي وعودتي. قد تكون لي كؤوس، هذه الليلة، لكني لن أتوسلها أو أتحسر عليها. ان للشراب كرامته. "

في شقتي، انفتحت من حلمتيها عينان منتصبتان. تشرب كأسها كلما ملىء. تكتب في دفترها خواطرها. الفاعل عندها منصوب، والمفعول به مرفوع في معظم الأحيان. لم يكن عندي معظم الشعراء الكبار، لكن عندي من قتلهم حب الشعر. لم يُغْرها أيّ واحد منهم. بَشَرَتُها بيضاء، لكنها سميكة ومشدودة، مزروعةَ بالزغبيات المُشْرَبَة بالسَّواد. عيناها باسمتان اذا انشرحت، ورموشها وارفة سوداء: أجمل ما فيها. شفتاها رقيقتان وشعرها المجعد، قليلا، تفوح منه رائحة أوراق فصول الخريف المكدسة أول ما يبللها المطر. أحيانا، اذا هي لم تغتسل أياماً، تفوح منها رائحة عنزة تَمُرّ. رائحة الشراب والتبغ دائمة في أنفاسها. تُشَهِّي اذا هي امتزجت بعطرها القوي. ننام معاً في الفراش. وجهها دائما الى الحائط. وعندما أتفقدها أجدها نائمة على مضجع قاعة الجلوس معانقة مخَدَّة صغيرة. لا بدّ أن أشتري لها دمية قرد أو دبّ. انها نائمة - يقظةَ. تشعل سيجارة بأخرى كعادتها. في ليلة دخنت علبة كاملة. وفي الصباح كان مكتوب على دفترها: " حلمت أني أسحق فراشة فإذا به طائر ينبثق من بين قدمي.

كان أبي يطاردني في بستان فسقط في بئر. جاءت أمي عريانة وصاحت: هنا القبر! ثم رقصت. أبي يستنجد وأمي يُجَنِّنُها رقصها ابتهاجا. لقد أعيتها شيخوخة أبي الواهنة. انها تحب رجلا آخر."

سالية تكره شعاع الصباح في طنجة. غالبا ما تلبس ثوبا أسود. انه يلائم بياضها. لست دارياً اذا كانت تعرف جمالها فيه. تحب ليل الشارع والحانات الصاخبة، ويقلقها ليل الوحدة والسكون. انها تلعب في خيال الرجال. تغامر من أجل أن تملك أو لا تملك. لم يعد لديها ما تخسره. تتضاءل كل يوم. تتوزع بين من يعرفها ومن لا يعرفها. الأفواه تمصُّها بثمن أو بدونه. في الصباح، قد لا تتذكر إلا نبض الفراش وقَلَّما يُوَدِّعُها سيّد ليلتها.

جاءت الى طنجة في غير أوانها. استطار عقلها . أنساها أسفلها أعلاها في ليل طنجة. تعلمت كيف تكذب وتصدق نفسها. لا يكذبها أحد لأن الذين تنقاد لهم أكذب منها. أليس أن الكذابين يتآزرون فيما بينهم مثل السُكارى، ولهم مزاجهم الأقبح من الكذب اللطيف.؟

سالية خانها شبابها، وفنُّ العيش. فَرَقتنا الأهواء فَصرنا نَتَراءى في الحانات والمراقص .نَتَماسُّ ولا نَتَواجَه. كلانا له هواهَ، ولست السابق ولا اللاحق في حياتها. وظلَّ عِشقُ مَا لا يمكن أن يكون هو الأقوى بيننا.

27

طنجيس

يَحكُون عَنْك : أنَّ طينَةَ الْخَلاَص منْكْ ،
وأنَّ نُوحاً فيكَ قدْ تَفَيَّأَ الأَمَـــــــَـانْ ،
وأنه حمامةٌ ، أوْ هُدْهُدٌ ،
وأنَّهُ غُرَابْ
وبيْنَ موْجتيْنْ
تَنَاسَلتْ طَنجةُ ملْءَ زَبَدِ البحارْ.

* * *

تَعَاقَبَتْ على بكارَتكْ
مَباضعُ الشبَقِ والغُزاةْ
مناسكُ الحلولِ والتَّناسُخِ.
وكان عيدُ بَاخُوسَ
يُفَجِّرُ الجنونَ في الأصْلاَبْ ،
والهَذَيانَ في ثُغَاء الْبَحْرْ ،
كأنما طروادةٌ يَرِثُهَا الحصانْ ،

كَأنَّهَا في مَوْتِهَا عَرُوسْ
أجَّجهَا خامدَةً زيُّوسْ.

* * *

وفي الطّريق نَحْوَ قَلْعَتكْ،
أنبئت أنك الّتي تُشْبهُهَا أرْكَاديَا.
وكَان أن ورَدْتُ نَبعَكَ الغزيرَ عنْدَ الْفَجرْ،
وَفي فَمي ثَدْيٌ منَ الأسْمَالْ.
وَفي مَسَافَتَيَّ طعْمُ النفيِّ والوبَاءْ،
أفَقْتُ في الظّهيرَة.
فاجأنيَ المخاضُ في الرّيعانْ.
أحسست في الوريد شيئاً يشبه الجروحَ واليفَاعةَ.
أكلت لحم الجنيات نيِّئاً.
وفي مساء النَّقْعْ.
كنتُ حفيداً لستُورنسُن الرجيمْ.
فلا أبي ابراهيمْ،
ولا أبي ديدالوس.
أهيَ لعنَةُ المُقام فيكْ؟
كيفَ إذن أرتحلُ... وأنت لي متاهةٌ؟
وَلستُ من رَحم أريانَ ولا بينيلوبْ!
رمتنيَ الأمواجُ في شواطئكْ،
على حُدود جزر المَرْجَانْ.
وحين مدَّ بصري نحوكِ خيطَ الكَشف
مَسَخْتني.
هل أنْت ميدوزا ولا أعرفها؟
وهل لليلك الكفيف شهرزادْ؟

وهل له عشتارُهُ العَشيقةُ؟
والشبق المَحموم في عُيونِ ميسالينا؟

* * *

رأيتُ في عينيك كلَّ نَزوات العَقْلْ.
رأيت في عينيك شَهوتينْ:
مسافةَ الجَسَد فيَ أنكيدو،
وطفرات الروح في كيلْكاميش.
وتحلمين بربيع العشق أن يدومْ.
وتحلمين بربيع العمر والربيعْ.
كوني كما تشائين:
بَلقيسَ أو مريمَ أو رابعةَ ال......!
كوني كما تشائين،
إلاّ التي أنت على صُورتِها.

* * *

جنانُك الخضراءُ بالطّواويسْ،
شاطئكِ الأُسطوري،
تلالك الوَردية،
أطلالكِ المسبية،
لم تنسنيَ الذبابَ والمستنقعات والدروبَ الضَّيقة.
فكم رأيتُ قططاً - أرانباً!
عَمَّدَها العرّاب فيِ البيعة والمسجد والكنيسة.
يُغمدُها المُشردون في تخومِ الجوعِ.
أبوابَك الخرساءُ كالشطآن موصَدَةٌ،
ونحن في عرائنا يَجرفنا المطرْ،

ونجرع الدفء من الكحولْ،
كأن ما نلمسه وباءْ

* * *

يحكون عن كنوزك القديمة:
أن الغُزاة هَرَّبوا أُوّارَها.
يحكون أن حلمك البعيدْ،
يجيء خجلان ويمضي رائعاً.
يحاورُ النفي الذي يحاصر المَدى،
هُوِيَّةَ التيه الذي يبدأ حين ينتهي،
هُويَّةَ السقوط،
هُويَّةَ العَزاء في الجُرح الذي لا يَلتئمْ،
هُويّةَ الغياب والقُمامَة.

* * *

في مطهر الفردوس والجحيمْ،
أجسادهم، أرواحهمْ،
رأيتها تُباعُ في الأسواقْ،
مَحظورةً، مُباحةً، بأبْخَسِ الأثمانْ،
أبعادُهم، فضولهمَ، أكفانُهم، فُصولهمْ،
وبعثهمْ،
وطَمْثُهمْ،
تُباع في الأسواق في المَزادْ.
عين على البَحرْ،
أُسْتٌ على الحَجَرْ
أذن على الخبرْ.

محمد شكري

الثمن 30 درهم